الموسوعة التاريخية
للخلفاء الفاطميين

٢

القائم بأمر الله

تأليف : الدكتور عارف تامر

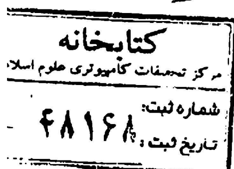
دار
دمشق

دار
الجيل

الموسوعة التاريخية
للخلفاء الفاطميين

الخليفة الثاني:

القائم بأمر الله





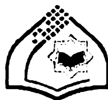
تأليف

عارف تامر

دكتور في الآداب



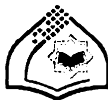
دار
الجيل



مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الطبعة الاولى

١٩٨٠ م ـ ١٤٠٠ هـ



مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

عودة الى الكتاب
الأول من الموسوعة

أفردنا في الكتاب الأول من الموسوعة التاريخية للخلفاء الفاطميين الخاص «بعبيد الله المهدي»، عدداً من الصفحات تحدثنا فيها عن سيرة القائد الفاطمي المعروف «أبو عبد الله الشيعي» الذي أشاد التاريخ بمواقفه البطولية. وبفتوحاته. وبجهوده المضنية التي بذلها في سبيل إقامة الدولة الفاطمية في ربوع أفريقيا الشمالية، وعندما نعود في هذا الكتاب الثاني للتحدث عنه، وعن فتوحاته. وأعماله. ومزاياه. فلكي نقدم الدليل على الأمانة التاريخية. ونبرهن على شدة حرصنا على ربط الأحداث، والوقائع ببعضها البعض. وجعل القارىء الكريم على صلة بالأحداث كاملة، خاصة ولأن ما سنذكره الآن يشكل بمجموعه ارتباطاً وثيقاً بموضوع هذا الكتاب، كما أنه يأتي متمماً لما ذكرناه في الكتاب الأول.

امتاز «أبو عبد الله الشيعي» ببراعته في التحدث، والنطق، والخطابة، وكان كما ذكر عنه يمتلك البلاغة في إيراد الفكرة، والإفصاح عنها، وتأديتها ببيان ساحر وأسلوب إقناع يؤثر في السامع، ويدخل في هذا النطاق طول باعه في علم المنطق، والفلسفة وأصول التشريع، والفقه الإسلامي، والحديث، وكل هذا قرّبه من القلوب، وجعل السامعين إليه يتأثرون بأفكاره، ويستجيبون له، ويسيرون بركابه.

وامتاز أبو عبد الله بطيبة قلبه، وورعه، وكرمه، وتربيته، ووفائه وحبه للطبقة الفقيرة من الشعب، وللمحاربين الذين يسيرون تحت إمرته، فكان حريصاً أشد الحرص على رفع شأنهم. وإعطائهم حقوقهم، وإنصافهم، وتوفير الحياة الفضلى لهم، أمّا جرأته، واستهانته بالخطوب، ولذته باقتحام الصعاب، وبعد نظره باختيار الأعوان والرفقاء، فهذه صفات لازمته منذ الصغر، وكانت خير معين له على الوصول إلى الهدف.

ظهر أمره عندما أطاعه «البربر»، أو بلغة أصح عندما دخلت قبيلة «كتامة» في طاعته، واستجابت لأوامره ودعوته، فاتخذ منها أداة لتحقيق ما يصبو إليه، وجنّد رجالها،

وجعلهم نواة لجيشه الكبير الذي اندفع يحطم الإمارات الصغيرة . والزعامات القبيلية القديمة ، والتيجان البرّاقة التي كانت تسطع في تلك الأيام على رؤوس رجال أعمتهم الجهالة والغباء والفوضى والتخلف ، فلم يرعوا للشعب حرمة . ولا عرفوا للكرامة قيمة .

أجل . . . اندفع أبو عبد الله على رأس جيشه الكبير الذي سهر الليالي الطوال على إعداده . وتنظيمه ، وتدريبه ، من مناطق « كتامة » ، وشرع بالتقدم فاتحاً عابراً من مدينة إلى أخرى . واضعاً نصب عينيه مملكة « بني الأغلب » كعمل أول . ولم يتمكن « زيادة الله الأغلب » الثالث من إيقاف ذلك الزحف الهادر الذي هبط من جبال الأوراس فجأةً . . . ذلك الزحف الذي تحدثت به الركبان . فذكرت بأن المغرب لما يشاهد في كل عصوره ما يماثله عنفاً ، وكثافةً . وكانت معركة « كينونة » وهي أول معركة حربية يخوضها . وفيها تصدّى له « إبراهيم ابن حبشي » ، ويذكر التاريخ : أنها بدأت منذ طلوع الفجر . ولم تنتهي حتى أسدل الليل ستاره . وفي ختامها فرّ إبراهيم ومعه كل من كتب له النجاة من أصحابه . بينما اشتغل الجيش الكتامي عن اللحاق بهم بالاسلاب والسلاح والأموال . والغنائم ، ومما تجدر الإشارة إليه . أن جيش أبو عبد الله

ارتدى في ثاني يوم الثياب الحريرية ، وتقلّد السيوف المحلاّة ، وركب السروج الفضيّة ، واللجم المذهّبة ، وذلك لأول مرة .

في سنة ٢٩٤هـ عاد إبراهيم بن حبشي إلى الظهور ثانية على مسرح الأحداث بعد أن أتمّ تجهيز جيش كبير ، فالتقى بأبي عبد الله على مقربة من مدينة « طبنة » ودارت رحى المعارك ، وكانت في هذه المرة أكثر عنفاً وضراوة ، ولكن إبراهيم ومنذ الجولة الأولى أدرك بأن جيشه لا قدرة له على الثبات طويلاً مما جعله في نهاية المطاف ينزع إلى الفرار . تاركاً جيشه فلولاً وشراذم شاردة في البراري والقفار ، وهكذا وضع نهاية لحياته . وانطوت صفحته إلى الأبد .

في سنة ٢٩٦ وصل أبو عبد الله إلى « قسطيلية » وتمكن من إلحاق الهزيمة «بأبي مسلم بن منصور»،و«بشبيب بن أبي الصارم » وكلاهما وقف بوجهه ، كما أنه في هذا العام زحف إلىالأربس ونازل«إبراهيم بن الأغلب»، فانتصر عليه ، وقد فرّ إبراهيم في نهاية المعركة إلى«القيروان»بعد أن أبيدت جيوشه إبادةتامة،وفي «القيروان »دعا الناس إلى الأخذ بيده ، ونصرته ، ولكن الأهلين رفضوا الاستجابة إليه ، ففرّ ولحق بزيادة الله . أما أبو عبد الله فسار إلى « باغاية » واحتلها ، ومنها توجه

إلى « القيروان » ، ودخلها دون قتال . وهكذا « رقّادة » ويذكر التاريخ أن جيشه في تلك المرحلة كان مؤلفاً من سبعة عساكر . ويقدر بثلاثمائة ألف فارس وراجل .

في تلك الأيام التاريخية . وفي غمرة الانتصارات المبكرة الحاسمة ، وصلت إليه الأخبار عن وصول « عُبيد الله المهدي » إلى « سجلماسة » . ووقوعه في قبضة « اليسع بن مدرار » فلم يرهبه النبأ ، أو يحرك ساكنه ، بل أكمل زحفه ، وفتوحاته ببرودة أعصاب وعدم اهتمام حتّى وصل إلى ضواحي « سجلماسة » مساء السبت ٧ رجب سنة ٢٩٦هـ ، وفي صباح الثامن من رجب سنة ٢٩٦هـ دخل المدينة دون قتال . بعد فرار صاحبها « اليسع ابن مدرار » فجاء إلى السجن الذي يقيم فيه « المهدي » وأخرجه.

ممّا تجدر الإشارة إليه في هذا الصدد إني عثرت على مصدر تاريخي ورد في كتاب « الناصر الأموي » لمؤلفه « سيمون حايك » وفيه يذكر أن « المهدي » كان في « سجلماسة » يقيم إقامة جبرية معزّزة بالحراسة الشديدة في منزل تملكه امرأة من آل مدرار تسمّى « مريم » . وهذه الامرأة هي عمة « أليسع بن مدرار » وكانت تقية ورعة . وذات تأثير على ابن أخيها ، وإليها يعود الفضل بحقن دماء « المهدي » ، وعدم

الإساءة إليه من قبل أليسع ، ومما تجدر الإشارة إليه أن المهدي قدر موقفها فأعطاها الكثير من الأموال ، والهدايا وبعد أن تمّ له الخروج من سجنه ، أعطى أوامره بالمحافظة عليها ، وعدم الإساءة إليها ، كما أبقى على أملاكها ، وأحاطها برعايته هي وأبنائها طيلة مدة حكمه .

بعد أن تمّ لأبي عبد الله هذه الانتصارات الحاسمة ، توجه إلى « تاهرت » فدخلها سلماً ، ولكن « يقظان بن أبي يقظان » تصدى له ، فقبض عليه ، وأمر بقتله ، ومنها تابع السير إلى «سجلماسة »فولّى عليها «إبراهيم بن الأغلب »بعد أن جاءه طائعاً ، ونادماً ، وفي هذا يتجلّى حسن تدبيره ، وبعد نظره ، وسياسته الحكيمة . أمّا «أليسع بن مدرار »فقد غدرت به قبيلة « بني خالد » وهي من البربر سنة ٢٩٧هـ وكانت هذه القبيلة قد استأمنت من أبي عبد الله فأمنها .

في الكتاب الأول من الموسوعة أعطينا التفاصيل الوافية عن مقتل «أبي عبد الله الشيعي » ، غير إنّا عثرنا فيما بعد على مصدر تاريخي فيه كل الغرابة ، ولا ندري من أين استقاه « سيمون حايك » في كتابه عن الناصر الأموي وخلاصته :

إن «عبيد الله المهدي »حينما قرر قتل «أبو عبدالله الشيعي »

أرسل إليه من دس له السم في الطعام وكان في «طرابلس – الغرب».
إن هذا المصدر لا يتفق مع المصادر التاريخية الأخرى . . . ففيه ما يدل على المبالغة ، وعدم التروي بإيراد الوقائع ، ولهذا فإننا نرفضه ونستبعد أن يقدم «المهدي» على استعمال السم في عملية مثل هذه لا سيما في وقت يمتلك فيه القدرات والإمكانيات . لتنفيذ كل ما يريده دون اللجوء إلى هذا الأسلوب الدنيء الذي لا يقدم على ارتكابه إلا الضعفاء ومرضى النفوس ، والجبناء .

المزيد من أخبار عبيدالله المهدي :

لم يتم للمهدي السيطرة التامة على بلاد شمالي أفريقيا كاملةً ، فالثورات كانت تندلع من هنا ، ومن هنالك مهددة منذرة ... تنطلق كلما وجد أصحاب المطامع ، والناقمين والمعارضين فرصة سانحةً ، أو سبيلاً إلى إضرام النار ، وإعلان التمرد والعصيان .

ومن الجدير بالذكر أن المهدي لاقى صعوبات جمة في إعادة الهدوء والاستقرار إلى أرجاء دولته الحديثة خاصة بعد مقتل أبا عبد الله الشيعي ، فكم من مرة اضطرّ إلى خوض المعارك بنفسه ، أو بواسطة ولي عهده « القائم بأمر الله » فتأديب العصاة ، وإخماد الثورات كانت عمليات شاقة بالنسبة إلى رجل أنيطت به مهمّات حكم دولة جديدة ، ولعلّ أهم حدث واجهه في أول عهده ، وإبّان حكمه ، واستدعى

اهتمامه . وقلقه خروج قبيلة « زناتة » عليه واتخاذها خطة العداء لدولته شعاراً لها . أو بلغة أصح سلوكها سبيل التصدي والهجوم على هذه الدولة في أية جهة كانت . يدلنا على ذلك مبادرتها الأولى . وهجومها على « تاهرت » عاصمة « بني رستم » وقد تمكنت من استردادها من الجيش الفاطمي . ولم تنفع مقاومة عاملها الفاطمي « دوّاس » الذي فرّ أخيراً ولجأ إلى « رقّادة » . وهذا القائد اتهم بمؤامرة عصيان ضد الدولة الفاطمية ، فألقي القبض عليه . وتمّت محاكمته وقتله .

بعد هذا الحدث عين المهدي « مصالة بن حبوس بن بهلول الكتامي المكناسي » قائداً عاماً لجيوشه . وفوّض إليه أمر إخضاع ، وتأديب الزناتيين . وهذا القائد عرف بصلابته وقدرته على قيادة الجيوش ، فجاء إلى موقع « فلك مديك » ونازل الزناتيين ، وتمكن بعد سلسلة من المعارك العنيفة من قتل أعداد كثيرة من أفراد جيشهم وقوادهم ، وإلحاق الهزائم بهم .

في الجزء الأول من الموسوعة ذكرنا الكثير عن اهتمام « عبيدالله المهدي » بجزيرة « صقلية » ولمحنا إلى ما بذله من جهود في سبيل إيجاد أسطول بحري كبير للدولة يكون قادراً ليس على رد غزوات الروم . بل على شن الغزوات على مدنهم

وسواحلهم،ولكن عندما أدرك الخليفة الأموي في «قرطبة» «الناصر لدين الله»أن الدولة الفاطمية أصبحت تملك أسطولاً يفوق أسطولها عدة وعدداً شرع بإقامة مراكز للمراقبة في المدن الأندلسية الساحلية . فقد أدخل في حسابه إمكان وصول إمدادات فاطمية «لابن حفصون» الذي كان يقوم بثورة كبرى في الأندلس . تدعو إلى خلع طاعة الأمويين . ومن الجدير بالذكر أنه كان يعلن في كافة البلدان والمناطق التي يحتلها ويحررها اسم الخليفة الفاطمي المهدي .

من جهة ثانية فإن المهدي سنة ٣٠٤هـ أمر قائده « مصّالة بن حبوس» وكان مكلفاً بحكم منطقة « تاهرت » بمهاجمة« سعيد بن صالح» في «ناكور» فهاجمها،واحتلها،وقتل سعيد وأصحابه، وأرسل رؤوسهم إلى«القيروان»، وولّى على المدينة المذكورة والياً كتامياً يسمّى « ذلول » أما بقية أسرة«بني صالح»ففروا إلى الأندلس . ونزلوا «بمرسى مالقه» حيث أحاطهم الأمويون بكل عطف ورعاية ، ولم يطل الأمر بهم فعادوا إلى « ناكور » بعد أنزودهم«الناصر»الأموي بكل ما يحتاجون إليه من مال ، وعتاد ، وسلاح . فاستولوا على المدينة ، وقتلوا ذلول ومن يحيط به . ولم يقم المهدي برد سريع على هذه الحركة ، بل ترك كل ما يتعلق ببني صالح حتى سنة ٣٠٨هـ، ففي هذا العام

توجه مصّالة لمهاجمة « يحيى الإدريسي » الرابع . وفي سنة ٣٠٩هـ عاد «مصّالة » إلى «سجلماسة » . وكان «أحمد بن مدرار » قد استولى عليها فدخلها وقتله . وبعد هذه الانتصارات توجه إلى بلاد الأدارسة . وأخذ باحتلالها واحدة بعد الأخرى . وبعد أن تمّ له ذلك ولّى عليها « موسى بن أبي العافية » وهذا القائد لعب دوراً بارزاً في تاريخ الدولة الفاطمية . أصله من قبيلة «مكناسة »، وكان في بدء عهده مخلصاً للفاطميين . غير أنه انقلب عليهم فيما بعد .

وفي تلك الفترة طلب المهدي إلى قائده «مصالة »مهاجمة « محمد بن خزر » زعيم قبيلة « مغراوة » وهي فرع من « زناتة » فتوجه «مصالة »، والتقى به . ودارت بينهما معارك عرفت بعنفها ، وبكثرة ضحاياها . وفي نهايتها تمكن «محمد »من قتل « مصّالة » وإلحاق الهزيمة بجيشه . وعلى أثر ذلك وجّه المهدي أوامره إلى «موسى بن أبي العافية » باحتلال « ناكور » وكانت الخطبة فيها في تلك الفترة قد أعلنت باسم الأمويين . فجاء إليها «موسى »وقتل صاحبها « المؤيد بن عبد البديع بن إدريس بن صالح » كما تمّ له تهديم أسوارها ، والعبث بكل ما فيها ، ومنها تابع سيره إلى « جراوة » فدخلها بعد أن فرّ صاحبها « ابن أبي العيش » ، وهكذا فإن منطقة نفوذ «موسى » قد امتدت من أهواز «تاهرت »حتى « السوس الأقصى ».

بعد أن تمّ «لموسى» كل هذا طمحت نفسه بالمزيد من الانتصارات . وكان في تلك الفترة قد أرسل ولأول مرة الخليفة الأموي «الناصر» أسطوله بقيادة «فرج بن عفير» إلى «سبتة» فأنزل فيها قوة ، ورفع على أسوارها الأعلام الأموية الأندلسية . فاعتبر «موسى» ذلك بداية لتدخل سريع في البلاد الفاطمية . فما كان منه إلاّ أن أجرى مفاوضة مع الأمويين انتهت بإعلان الولاء والطاعة لهم . ونجم عن ذلك إقدام بعض القبائل على احتلال «جراوة وأوزقور» ، وهكذا فإن انضمام «موسى بن أبي العافية» إلى الأمويين . وإعلان «محمد بن خزر» الزناتي الحرب في الداخل جعل الدولة الفاطمية في وضع مضطرب . كما جعل القسم الأكبر من أراضي المغرب الأقصى بالإضافة إلى مساحات شاسعة من المغرب الأوسط تحت حماية «سيد قرطبة الناصر الأموي».

ولكن هل وقف «المهدي» مكتوف الأيدي أمام هذه الأحداث الخطيرة ؟ وهل استسلم للعواصف الهوجاء التي عصفت بدولته ؟ إن خيانة موسى تلك أقامته وأقعدته ، وجعلته يطلب إلى حاكم «تاهرت» «حميد بن ياصل» الذي خلف «مصالة بن حبوس» أن يتخذ التدابير السريعة للقضاء على حركة موسى مهما كلف الأمر . وهكذا حدث بالفعل ، فإن «حميد»

خرج إليه . والتقى الفريقان في شرقي « تازة » . وبعد سلسلة من المعارك الضارية فرّ «موسى» مع أصحابه تاركاً مدينة «فاس» أيضاً للفاطميين . أما «حميد» فبدلاً من أن يعزز انتصاراته ، ويتابع هجماته ، عجّل بالرجوع إلى «المهدية» . وعندما وصل قبض عليه المهدي وأودعه السجن . ولكنه تمكن من الفرار فيما بعد ، وتوجّه إلى «قرطبة» حيث عاش فيها بقية حياته .



الفتح العربي
لشمالي افريقيا :

خرج « عبد الله بن سعد » إلى غزو أفريقيا الشمالية في عشرين ألف رجل وذلك بعهد الخليفة الثالث « عثمان بن عفّان » وعندما وصل إلى « طرابلس الغرب » وجد الروم قد تحصنوا فيها . فتركهم وسار باتجاه شاطىء البحر حيث هاجم السفن الراسية في الشاطىء ، فتمكن من الاستيلاء عليها ، وعلى ما فيها من المتاع ، والسلاح ، والمؤونة . ثم رحل إلى « قابس » وكان الروم قد تحصنوا فيها ، فدخلها دون قتال ، ثم أكمل طريقه حتى وصل إلى شمالي أفريقيا . وهنالك واجههم ملكها « جرجير » بمائة وعشرين ألف مقاتل ، فعرض عليه « ابن سعد » الدخول في الإسلام فامتنع كما رأى أن الكثرة التي معه قادرة على سحق القلة المسلمة ، وأقسم في ذلك الوقت أن يزوج ابنته لمن يأتيه برأس « عبد الله بن سعد » .

وذهب «عبدالله بن الزبير» بثلاثين من أصحابه . فسلكوا طريقاً تعود أن يسلكه الجند في الوصول إلى الملك . فلما رآهم ظنهم من جنوده . حتى أشهروا السلاح عليه وقتلوه . وبعد ذلك حمل المسلمون على عساكره فهزموهم . واتبعوهم في السهل والوعر حتى أبادوا أكثرهم . ثم ساروا إلى فتح المدن والأمصار . وغنموا غنائم كثيرة من الأموال والحلي والذهب . وفي تلك الفترة جاءوا بابنة جرجير إلى ابن سعد . فسألها عن قاتل أبيها . فأشارت إلى «عبد الله بن الزبير». فأعطاها له .

وفي عهد « يزيد بن معاوية » ولي عليها « عُقبة بن نافع » فذهب إلى «القيروان» وخلّف فيها ولده مع البعض من جيشه . ورحل مع عسكر عظيم إلى « باغاية » فقاتل أهلها قتالاً عظيماً . وهزمهم . ومنها يمّم شطر « حمس » فهزم أهلها . ودخل «الزاب» . وظلّ باندفاعه حتى وصل إلى «تاهرت» فوجد عليها جموع من البربر والنصارى . فأوقع بهم . وتمكن في النهاية من الانتصار عليهم . وعلى « لواتة . وهوارة . وزواغة . ومطماطة . وزناتة . ومكناسة». وبعد أن فرغ من احتلال المغرب الأوسط دخل إلى المغرب الأقصى وذلك سنة ٦٢ هـ . فوصل إلى «طنجة» وكان عليها «يليان» فاستأمنه . ومنها ذهب إلى مدينة « وليلي » بقرب «فاس» (قبل بناء فاس) فهزم جموع

البربر واتبعهم حتى « درعة » ثم نزل إلى الصحراء . ومن درعة إلى « تلمسان » حيث تم له دخول « صنهاجة » وهناك نزل على « اغمات » ثم على « نفيس » ثم « وادي سوس » وسلك «ماجة » ثم «رجراجة » ثم«صودة»، « وايصرول »، وسرنو .

وفي سنة ٦٩هـ أرسل «عبد الملك حسان بن نعمان الغساني » في أربعين ألفاً فسار حتى وصل إلى «القيروان» .

وفي سنة ٨٩هـ أرسل الوليد بن عبد الملك « موسى بن نصير » إلى الأندلس فأرسل موسى ابنه مروان إلى«السوس الأقصى »،وأرسل « زرعة بن أبي مدرك » إلى قبائل البربر فطوقهم وأخذ رهائن من«كتامة وزناتة وهوارة»، ثم ولى عليهم«طارق بن زياد»وعاد إلى أفريقيا .

إن المتتبع للتاريخ يرى :

إن هذه البلاد منذ فجر التاريخ حتى الأمس القريب . ظلت تعيش حياة الفوضى وعدم الاستقرار . أو بلغة أصح الحياة القبلية في كل ما في هذه الكلمة من معنى . فمنذ الفتح العربي حتى ما قبل عهود الاستقلال وهي عرضة للأحداث الفاجعة . والنكبات الصادعة . . . قبائل تتبارى ، وتتحاسد .

وتتنازع النفوذ ، والجاه ، والسيادة ، والغنائم ، فإذا انحازت إحداها إلى الأمويين ، فلا تلبث جارتها أو شقيقتها بدافع الحسد والغيرة أن تنحاز إلى الفاطميين ، أو إلى جهة تعاديها .

دويلات صغيرة ، وإمارات متناثرة ، وزعامات تقليدية معرضة للأخطار الماحقة تموت إحداها ، فتنهض أخرى لتحيا على أنقاضها وهكذا دواليك . . . عشائر تعيش على الطراز القديم البالي الخارج على سنن التطور ، والتقدم . . . هدفها إثبات شخصيتها ، وفرض إرادتها ، وتحقيق أطماعها ، فلا عقيدة أو دين يردعها ، أو يصدها أو يقف في وجهها كما لا مبدأ يمنعها من اقتراف الجرائم والمنكرات .

تنقض المواثيق المبرمة ، وتنكث بالعهود المعطاة دونما مبرر ، فكل أمير قبيلة ، أو حاكم مقاطعة جعل من نفسه حاكماً فرداً ، وضرب بالقانون ، وبالأخلاق عرض الحائط ، وكل أمير يتربص بجيرانه من الأمراء الدوائر متحيناً الفرص للانقضاض عليه ، وإزالة ملكه ، أو اقتطاع جانب من أملاكه ، وكثيراً ما يلجأ إلى الدس والخديعة ومصادقة العدو الرابض ، والاستعانة بالأجنبي الدخيل . . . أمراء يتلهون بتوافه الأمور وصغائرها عن الأمور الجسام ، فكثيراً ما صرفتهم هذه الأعمال عن إسداء الخير ، وخدمة الأمة والوطن ، وجعلتهم في مهب رياح الأهواء والنزوات .

أجل . . . في عهد الدولة الفاطمية التي نحن في صدد التحدث عنها ، كانت بلاد شمالي أفريقيا مكونة من شعوب غريبة غير متجانسة ، ومن عناصر ، وقبائل مختلفة لم يكن بالأمر السهل إدماجها في وحدة شاملة ، أو إخضاعها لنظام عام . فطبيعة البلاد الجغرافية . وتوزيع السكان في المناطق وانتشار القبائل بعضها في أمكنة صالحة . وبعضها في أمكنة لا قيمة لها ، كل هذا وقف حائلاً دون إيجاد العلاج الناجع . فالوحدة التامة كانت غير ممكنة التحقيق كما قلنا ، كما أن إخضاع هذه القبائل والشعوب إلى سلطة عليا ، أو دمجها في دولة واحدة . ضرب من المستحيل ؛ ومن هنا انبثقت المتاعب . وأطلّت الصعوبات بوجه كل مصلح يدعو للإصلاح ، أو أي إنسان يتصدّى لعمل الخير .

يذكر التاريخ :

إنه في عهد الخليفة الفاطمي الثاني « القائم بأمر الله » . برزت إلى الواجهة السياسية المغربية قبيلة « صنهاجة » وهي فرع من قبيلة « زناتة » فانحازت إلى الفاطميين بعد أن رأت القبائل الأخرى – أي شقيقاتها – قد اتخذوا سياسة معادية للفاطميين ؛ وانحازوا إلى جانب الأمويين ، فزعيم صنهاجة نفسه « زيري

ابن مناد » هرع إلى مصالحة «كتامة »، والدخول معها في حلف تحت سلطة الفاطميين رداً على زعيم آخر كان ينازعه السيادة هو « محمد بن خزر » الزناتي زعيم قبيلة « مغراوة » في المغرب الأقصى الذي أعلن الولاء للأمويين ، ومن الجدير بالذكر أن هذه المناورات ، والتقلبات دامت وقتاً طويلاً . فكانت شغل الخليفة الفاطمي «القائم بأمر الله» في بداية عهده ، كما كانت شغل الخليفة الأموي الناصر في الأندلس .

هذا غيض من فيض ، ولمحة عابرة كان لا بد من الإشارة إليها ، فهي في الواقع تشكل أساساً للبحث . ونعتبرها المدخل إلى الموضوع الذي نحن بصدده .

قبائل شمالي افريقيا :

البربر قبائل عديدة ، وشعوب مختلفة نزلت في أفريقيا الشمالية ، وامتدت أوطانها من حدود « برقة » حتى المحيط الأطلسي ، وكانوا يتكلمون لهجات أعجمية قبل استعرابهم ولا يزالون حتى الآن ؛ ويرجع أصلهم إلى فئات عرقية مختلفة استقرت في تلك البلاد قبل الميلاد ، وعرفت منها « مملكة نوميديا » أي موريتانيا اليوم .

اختلط بهم الفينيقيون واليونان اختلاطاً عابراً ، ولم يرتاحوا في حياتهم إلى حكم روما ، ولا تقبلوا الديانة المسيحية ، فمالوا عن الأولى والثانية . يذكر تاريخهم أنهم سهلوا غزو « الفاندال » لأفريقيا ، ولم يسالموا البيزنطيين . دخل قسم كبير منهم في الإسلام مع «عقبة بن نافع »، ورافقوا الجيش العربي في فتوحاته إلى أسبانيا بقيادة «طارق بن زياد »، كما أنهم اتبعوا الخوارج ،

وأعلنوا في أكثر الأحيان عصيانهم على العباسيين . ينقسمون إلى ممالك وسلالات منهم: « الأغالبة »، و«الرستميون» . و«المرابطون»، و«الموحدون». وهذه الممالك زالت جميعها في أواخر القرن الثالث عشر ميلادي ، فاختلط أهل المدن منهم بالعرب واعتصم الآخرون في جبال الأوراس ، والأطلسي ، وفي الريف ، وبلاد القبائل ، والصحراء حيث لا يزال القسم الأكبر منهم يحافظ على عاداته ولهجاته وتقاليده .

اشتهروا بحبهم للقتال . وتعودوا على شظف العيش . والحياة القبيلية القاسية التي أكسبتهم التمرد . وعدم الإخلاد للنظام . . . نفوسهم متأهبة دائماً وأبداً للمخاطر . وركوب متن الأهوال . فأخلاقهم على العموم لا تعرف اللين . ومن المؤكد أنهم دون العرب حضارة . وأن للعرب الفضل الأكبر عليهم، ولكن بالرغم من كل هذا فإنهم ينظرون إليهم نظرتهم إلى عدو مستعمر جاء إلى بلادهم فاتحاً . أما تزودهم من الحضارة الإسلامية فلم يكن على المستوى المطلوب . والحقيقة لم يستطع أحد من الفاتحين أن يغرس فيهم حب « الشيعة » إلا «أبو عبد الله الشيعي»، وقد مرّ معنا ذكر نزوله في بلاد« كتامة ».

أعظم قبائلهم عدداً وقوة هي «صنهاجة»، وتعتبر من أهم قبائل «البرانس »وأوفرها شدة وبأساً، واستعداداً للقتال، وتتفرع

من «زناتة» التي هي مجموعة من القبائل، ومن «صنهاجة» يتفرع : «الطوارق»، و«الهقار»، و«الملثمون»، وهؤلاء لعبوا دوراً كبيراً في قيام دولة «المرابطين» ويأتي بعدهم «كتامة» وهي القبيلة التي اعتنقت المبادىء الفاطمية على يد «أبي عبد الله الشيعي»، وقاتلت مع الفاطميين عن عقيدة وإيمان، وإليها يعود الفضل في كل ما حققه الفاطميون من فتوحات وانتصارات سواء في شمالي أفريقيا، أو مصر، أو المشرق.

دول شمالي
افريقيا :

عندما قامت الدولة الفاطمية في شمالي أفريقيا ، كانت دول ثلاث تبسط نفوذها على تلك الأرض الواسعة : «بنو الأغلب» في المغرب الأدنى، والمغرب الشرقي . و«بنو رستم» في المغرب الأوسط . و«الأدارسة» في المغرب الأقصى .

ومن مجريات الأحداث يظهر أن الأولى . والثانية ما لبثتا أن انقرضتا بمجرد أن سطع نجم الدولة الفاطمية . أما الثالثة فقد حافظت فترة غير قصيرة على ممتلكاتها . ومن الجلي الواضح أن«بني الأغلب»كانوا في حالة انحطاط عند بزوغ فجر الدولة الفاطمية فلم يتمكنوا من الصمود بوجه الفتح الفاطمي الذي استهدف بلادهم في وثبته الأولى .

عاصمة بلادهم كانت«القيروان». وأحياناً«رقاده» . وسلطتهم كانت تمتد حتى «قسطنطينة».ومن الثابت أن الثورات

الداخلية من قبل العشائر في مملكتهم لم تكن لتهدأ ، وهكذا الاغتيالات ، والاضطرابات ، والمؤامرات .

أما «بنو رستم» فكانت عاصمتهم « تاهرت » وكانوا يحكمون المناطق الصحراوية (من الجزائر اليوم) ، وكانت علاقاتهم ودّية مع جيرانهم البربر ، وخاصة « زناتة » ، ومن الغريب أن هذه المملكة كانت سريعة الزوال ، فلم تقوَ على الصمود ولو يوماً واحداً بوجه الفاطميين ، وهناك مناطق أخرى كانت تحكمها إمارات صغيرة مستقلة الواحدة عن الأخرى : «بنو مدرار» في سجلماسة وما يتبعها ، وهناك على ضفاف — المحيط الأطلسي — إمارة « برغواطة » وإمارة « ناكور » أما بقية البلدان الأخرى ، فكانت خاضعة لسلطان « الأدارسة » الذين يرجع نسبهم إلى « إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب » .

دخل إدريس المغرب سنة ١٧٠هـ في إمارة «يزيد بن حاتم» في أفريقيا ، وإمارة «هشام بن عبد الرحمن الداخل» بقرطبة ، وفي فترة ظهور «بني مدرار» في «سجلماسة».

كان نزوله «بوادي الزيتون» بمدينة « البلَد » وقيل في ضواحي «طنجة» .

أما سبب هجرته إلى شمالي أفريقيا فتتلخص : بأن «الحسين ابن علي بن الحسن بن علي بن أبي طالب» أقام بالمدينة أيام «موسى الهادي العباسي»، ثم خرج منها . ومعه جماعة من أهله وبني عمه ومنهم إدريس . فبعث الهادي إليهم «محمد بن سليمان ابن علي» فحاربهم «بفخ» وقتل الحسين . أما إدريس فقد تمكن من الفرار . والتوجه إلى مصر . وكان على بريدها رجل يسمى «واضح» مولى «صالح بن منصور» . فحمله على البريد إلى أرض المغرب . فوقع بمدينة «وليلة» من أرض «طنجة» وهناك أعلن عن نفسه ونسبه . فاستجاب له بعض قبائل البربر . ويذكر التاريخ أنه توفي سنة ١٧٥هـ . فخلفه مولاه «راشد» على البربر .

ترك إدريس جارية بربرية اسمها «كنزى» فولدت له غلاماً سمي باسم أبيه . وعرف بإدريس الثاني سنة ١٨٧هـ وكان له من العمر إحدى عشر عاماً .

بعد أن استتب له الأمر أسس مدينة «فاس» وكانت عدوة القرويين غياضاً في أطرافها بيوت من «زواغة». ثم أنه غزا «أنفزة» ووصل إلى «تلمسان» . ثم رجع ليواصل الزحف حتى «وادي نفيس» ، وبلاد «المصامدة» وأخيراً مات مسموماً سنة ٢١٣هـ.

خلفه ابنه محمد . ففرّق البلدان على أخوته بناءً على أوامر

جدته « كنزى » فأعطى «طنجة» ، وما يليها «للقاسم». وأعطى «صنهاجة» «لعمر». «وهوارة وتامليت» «لداود». كما أعطى «عيسى ويحيى وعبد الله» بلاداً أخرى.

ومن الأمور البارزة في تلك الفترة أن عيسى نكث عن طاعته وثار عليه، فكتب محمد إلى أخيه القاسم يأمره بمحاربته، فامتنع وعاد فكتب إلى عمر فأجابه، وسارع إلى نصرته. توفي عمر بإحدى بلدان صنهاجة، ونقل إلى فاس، وهو جد « الحموديين »، وبعد محمد تولّى يحيى. وهذا من جهته ولّى أعمامه، وأخواله إدارة بعض البلدان التابعة له، فأعطى حسين الجنوب من مدينة فاس إلى «أغمات». وولّى داؤد المشرق من مدينة «فاس ومكناسة وهوّارة». وولّى القاسم غربي فاس، وهي «وطتاة وكتامة»، ومن المشهور عن يحيى أنه كان منهمكاً بالشراب، ومحباً للنساء.

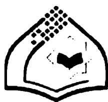
بعد يحيى تولّى « علي بن عمر بن إدريس » وهو صهره، وابن عمه. وفي عهده قام «عبد الرزاق» الخارجي من مدينة مديونة، وأعلن الخروج عليه. ثم قاد جيشاً، واستولى على فاس، وبعدها ملك عدوة الأندلسيين، وهنا اجتمع الأدارسة، وقدموا «يحيى بن القاسم بن إدريس» عليهم، وكان يلقب

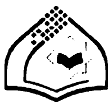
« المقدام » فملك عدوة الأندلسيين . وأخرج منها عبد الرزاق . ولكنه قتل أخيراً سنة ٢٩٢هـ على يد« ربيع بن سليمان ».

بعد موته عاد الأمر إلى بني عمر بن إدريس . وظل نفوذهم قائماً ، وسلطتهم موجودة إلى حين قدوم القائد الفاطمي « مصالة بن حبوس» سنة ٣٠٧هـ .وفي تلك الرحلة وطّد«مصالة »صداقته مع « موسى بن أبي العافية » وسلّمه جميع ما استولى عليه من بلاد المغرب الأقصى .

بعد هذا لم يتوقف يحيى بن إدريس صاحب فاس عن الإغارة ، فلما عاد«مصالة»احتل فاس وأقام بها مدة خمسة سنوات . فكان موسى بن أبي العافية يسعى في إلحاق الأذى بيحيى ، ويتهمه أمام«مصالة»بالخروج على الفاطميين والاتصال سراً بالأمويين ، وهذا ما جعل«مصالة»يقبض عليه ، ويبعده من فاس ، وبعد ذهابه تولّى موسى شؤون البلدان التي كان يحكمها .

في سنة ٣١٠هـ جاء حسن بن محمد « الحجّام » فأوقع بموسى في إحدى المعارك وقتل ولده « منهل » وملك فاس ، وما يليها لمدة سنتين ، ولكن « حامد بن حمدان الهمذاني اللوزي » ، عارض ، واستولى على المدينة ثم قبض على حسن





تقاسمهم النفوذ ، وتسد عليهم أبواب السيادة . . . لقد خافوا من خطرها ، وامتداد رقعتها ، ولهذا وضعوا جيوشهم في كافة المراحل في حالة اليقظة والحذر ، ومراقبة كل شاردة وواردة ، ولم يكتفوا بذلك بل خصصوا أجهزة عديدة من العيون والأرصاد لمراقبة ما يصدر من حركات عدائية ضدهم من جانب الفاطميين ، فضلاً عن اتخاذهم زمام المبادرة لتمويل الحركات الثورية ، والانتفاضات التي تنبعث ضد الفاطميين بالأموال ، والعتاد ، والذخيرة ، وأحياناً بالرجال ، وكان مبعث كل هذا الخوف ودرء الأخطار المحيقة ، واتخاذ الحيطة من شر هجوم مباغت ، ومما لا يخفى أن الدولة الأموية في عهد « عبد الرحمن الناصر » كانت غنية بمواردها وأموالها ، ولكنها كانت تعبة من أوضاعها الداخلية ، وتسلط الأعداء من كل جانب ، وبزوغ المؤامرات ، وانبثاق الثورات ، والانتفاضات ، فالروم في الشمال يطمعون ، ويعملون على توسيع أملاكهم ، والنفاد إلى الجنوب ، وخاصة بعد أن تمّ لهم السيطرة على « برشلونة » ، وكانت الإمارات المسيحية في الأقاليم الجبلية الشمالية تهدد ، وتقض مضاجع أركان عرش الخليفة الأموي بتحركاتها المستمرة التي لم تكن تقف عند حد ، ويدخل في نطاقها المطالبة بالاستقلال ، والحكم الذاتي ، ولكن كل هذا كان يقابل من قبل الأمويين برباطة جأش وعناد ،

إذا قيس بخطر واطماع الفاطميين . وتطلعاتهم إلى الاستئثار وحدهم بالملك دون الأمويين خاصة ، وفي هذا كله الرجوع إلى العداوة القديمة الموروثة . وإلى الأحقاد الدفينة بين الأسرتين العربيتين .



هواجس قرطبة

المصادر التاريخية أجمعت: بأن الخليفة الأموي« عبد الرحمن الناصر »، لم يحاول قط أو يفكر مرة بفرض سيادته على المغرب، أو جعله جزءاً من مملكته الأندلسية ، كل ما فعله أنه استولى على «سبتة وطنجة» ليس لمجرد الاستيلاء عليها، بل لاتخاذها نقطة دفاعية أو درعاً يحول دون الاعتداء ، أو الإغارة على أراضي الأندلس، فإذا كان « عبيد الله المهدي » لم يقم بهذا الاعتداء، فإن «القائم بأمر الله» ما زال حياً، ومن يكفل سكوته عن هذا الأمر ؟

لقد كان خليفة قرطبة يتبع بالنسبة لأفريقيا الشمالية نفس السياسة التي تمشى عليها مع الملوك المسيحيين ، فلا اعتداء ، ولا ضم أراضي جديدة لدولته ، بل وقوف موقف المدافع عن النفس ، والاكتفاء بالوضع الراهن ، كما يستدل من المعارك التي كان يخوضها ، فقد كانت سياسته تقوم على مبدأ

المحافظة على كيان دولته، وحدودها الطبيعية، واجتذاب الناس إليه عن طريق الملاينة، والتعايش السلمي، وإشغال الفاطميين بقضايا داخلية تلهيهم عن الالتفات صوبه .

أجل . . . كان يخشى على دولته من الفاطميين ، وقد ظهر هذا الخوف جلياً في مناسبات عديدة ، ولكن هل كان هذا الخوف في محله ؟ إن هواجس سيد قرطبة لم تكن لتخمد. كان في خلوته يسائل نفسه ... ماذا لو أن «عبيد الله المهدي» أول خليفة فاطمي بعد أن استتب له الأمر في المغرب بدلاً من أن يرسل ولي عهده القائم بأمر الله لاحتلال مصر البعيدة ، أرسله إلى الأندلس القريبة ، ولديه الأسطول الكبير الذي ورث أكثره عن بني الأغلب ، كما لديه الجيوش الجرّارة التي لا يمكن لأية قوة أن تقف بوجهها ، مضافاً إلى ذلك ، فإن « عمر بن حفصون » الثائر الأندلسي الكبير في قلعة « ببشتر » اتصل أكثر من مرة به وعرض عليه خدماته ، والتجند في صفوفه ، وهل الأندلس أقوى على الثبات في المجال أطول مدة من دولة بني الأغلب ، أو بني رستم ، أو الأدارسة انفسهم ، وهؤلاء جميعهم سقطوا صرعى أمام الضربات الفاطمية الأولى .

إذن فحظ الناصر كبير ، وطالعه سعد . . . ونحن نتساءل

لماذا لم يندفع المهدي في اتجاه الأندلس بدلاً من الانطلاق نحو الشرق ؟ الخبراء بالتاريخ الفاطمي – على قلتهم – يؤكدون بأن المهدي أراد أن يجعل دولته المغربية أمبراطورية كبرى تبتدىء من المحيط الأطلسي ، وتنتهي في أطراف الخليج العربي ، وكان يخطط لجعل عاصمة دولته تنافس بغداد فتكون دمشق مثلاً ، أو مكة المكرمة وبهذا تكون الخلافة الإسلامية قد استعادت مكانها .

وهناك احتمال آخر هو أن الوصول إلى الشرق حيث الأوضاع العامة متزعزعة أسهل وأخف جهداً ، فيكفي أن تهب ريح جديدة لتتناثر أمامها الأوراق الباقية على الأغصان ، والمعروف عن «المهدي» أنه كان شديد الحنين إلى الشرق حيث ولد وشب وترعرع ، فالانتصار واحتلال الأندلس لا يشفي غليل نفسه المتعطشة إلى المجد والسيادة وبسط النفوذ على العالم الإسلامي بكامله ، بالإضافة إلى البيت الحرام ، ولا شك بأنه قابل بين المكاسب التي يجنيها من حملته في السيطرة على الأندلس وبين المغانم المعنوية والمادية التي تنتظره في المشرق وفضل الرأي الأخير ، وهذا ما جعله يحول أنظاره إلى مصر ، كما أن ذلك جعله يتخذ الخطوات السريعة لبناء عاصمة دولته « المهدية » ويجعلها على ساحل البحر الذي منه سينفذ يوماً ما

باتجاه الشرق ، ولا شك أيضاً بأنه كان يحلم في الاستيلاء على « القسطنطينية » عن طريق « صقلية » ، وجزر اليونان ، فالدخول إلى الشرق عن هذا الطريق ربما كان أسهل مما يتصور ، كما أن احتلال القسطنطينية التي أعجزت الأمويين والعباسيين فيه ما فيه من البطولات والخلود .

ومات « عبيد الله المهدي » قبل أن يحول هذه الأحلام إلى حقيقة . وشغلته الثورات الداخلية ، وقلبت خططه رأساً على عقب ، بل هدّت أماله ، وخنقتها في مهدها .

وخلّف المهدي « القائم بأمر الله » وها هو يتبع سياسة المهدي الذي أحبه وأسلم له القياد . . . وبدا أنه حريص على تنفيذ وصيته وتعاليمه حتى تستريح عظامه في قبرها ، فها هو يعد جيوشه منذ اليوم الأول لاضطلاعه بالملك ، ويهيىء الغزوة للانطلاق إلى ضرب العباسيين ، عن طريق تركيا ، وعن طريق مصر ، حيث تتقدم قواته في البلقان وبر الأناضول نحو الشرق بفكي كماشة ثم يلتقي الجيشان أخيراً في العراق ، وكان يضع أمام أنظاره ، وجود دول عديدة في المشرق تلبي نداءه ، وتسير في ركابه لدى أول إشارة .

والحقيقة . . . ليست خطة وهمية هذه التي وضع بنودها

الخلفاء الفاطميون . . . انها فكرتهم القديمة أو بلغة أصح دستورهم الأساسي ، فهم منذ أن حطوا الرحال في شمال أفريقيا كان هدفهم النفاذ إلى مصر ، واتخاذها قاعدة للانطلاق نحو بغداد، وكل هذا أدخله سيد «قرطبة» في حسابه، وجعله في أكثر الأحيان في مأمن ، كما شجعه على إرسال الأموال والمساعدات لكل من يثور على الفاطميين ، أو يعارض وجودهم ، ولعل ذلك كما ذكرنا خطة وضعها الأمويون لإشغال الفاطميين وإعاقتهم عن التفكير بالآمال والأحلام .

أجل . . . لم يكن هنالك أي دليل ، أو ما يشير إلى أن «القائم بأمر الله» ينفذ أي مخطط لغزو الأندلس أو حتى إثارة الثورات فيها ، وخاصة بعد ثورة الخوارج التي عصفت ببلاده وكادت تذهب بها. . . تلك الثورة التي لم يسبق للفاطميين أن شاهدوا مثلها عنفاً وكثافة وتنظيماً ، ولا شك أنها حولتهم وشغلتهم عن التطلع إلى أية جهة من الجهات .

إن تلك الهواجس كانت تشغل أفكار وعقول أسياد قرطبة، وتمنع عن عيونهم لذة الرقاد ، امَّا أنها لم تتحقق، وامَّا أنها لم تصدق ، فهذا كله له علل وأسباب .

وفاة الخليفة الفاطمي الأول ـ المهدي ـ

مات الخليفة الفاطمي الأول «عبيد الله المهدي» في قصره بمدينة «المهدية» فجأة بعد عمر طويل قضاه في الجهاد، والنضال ومقارعة الأحداث، وعوادي الأيام . . . مات الرجل الذي استطاع أن يؤسس دولة كبرى من العدم في ديار بعيدة عن وطنه، وفي أرض لم يسبق أن وطأتها قدماه، أو عرف شيئاً عن طبيعتها وأحوال سكانها، فجعلها بين عشية وضحاها محط الأنظار، أو قل دولة ذات كيان، ينظر إليها الشرق والغرب نظرة إعجاب، وتقدير . . . مات الرجل العظيم الذي نسج التاريخ عن حياته فصولاً ردّدها الدهر، وتغنّى بها الرواة، وكم هو رائع أن تبرز في سطورها العبقرية بأجلى مظاهرها، تلك العبقرية التي رفعته إلى قمة المجد، وأجلسته على عرش الخالدين .

أجل . . . لم يكن موت المهدي حدثاً عادياً بنظر الناس ، أو عارضاً بسيطاً لا يثير الاهتمام ، والتساؤلات ، ليس في أرجاء الدولة الفاطمية ، بل في عموم المغرب والمشرق . والحقيقة فإنه من الأحداث الخطيرة التي تعرضت لها الدولة الفاطمية وهي في مطلع شبابها ، فغياب الرجل العظيم ، والمؤسس ، والقائد ، والموجه ، ترك في نفوس العامة والخاصة على السواء آثاراً ، وانعكاسات لم يكن سهلاً تناسيها ، أو غض النظر عنها وخاصة بالنسبة لولي العهد « القائم بأمر الله » الذي أمضه المصاب ، وجعله فريسة الحزن والارتباك ، تنتابه الأحزان ، والآلام على الرجل الذي ربّاه وعلّمه ، وترك له هذا الملك الواسع .

أجل ... أدرك «القائم بأمر الله» في تلك الساعة الرهيبة — ساعة الموت — بأنه فقد أغلى إنسان عليه في الوجود . . . أدرك أنه أصبح وحيداً في وطن ليس له فيه أهل ولا أقرباء . . . لا أسرة ولا أبناء عمومة . . . إلاّ بعض الصغار الذين لا حول لهم ولا قوة ، فالمهدي كان بالنسبة إليه النور الذي ينير جوانب نفسه ، والأمل الباسم الذي يطل عليه من بعيد حاملاً الرجاء والبشرى . . . لقد حزن القائم ، ومن حقه أن يحزن على الأب الروحي الذي تعهده منذ الصغر ، وعلّمه ، وربّاه ، وحافظ

عليه ، ولم يفارقه طرفة عين . . . من حقه أن يحزن على الرجل المخلص الذي شاركه أحزانه ، وأفراحه . . . سعادته ، وشقاءه . . . ولكنها سنة الكون . . . بل هذه هي خاتمة المطاف في الحياة .

ذكر التاريخ :

إنه لبس عليه الحداد لمدة عامين ، فكانت الابتسامة لا تعرف ثغره ، وذكر أنه صبغ حجرات القصر باللون الأسود . ولم يعرف عنه أنه تطيّب أو تخضّب بعد موته ، كما أنه لم يخرج من قصره راكباً على فرسه ، وكانت هذه عادة درج عليها المهدي عندما يخرج من القصر إلى المدينة ،أو إلى مكان آخر .

أجل . . . مات المهدي فجأةً . . . ولكن هل كان موته كموت أي شخص آخر في الدولة الفاطمية ؟ وهل انتهت قصة الموت بسهولة كأي حادث وفاة عادي . وهل نجت البلاد بعد ذلك من الكوارث ، والثورات ، والاضطرابات ، وصفا الجو للخليفة الجديد القائم بمعنى « مات الملك ليعش الملك » ؟ كل هذا جعل القائم يحسب الحسابات الدقيقة ، ويفكر طويلاً ، وطويلاً ، ويخرج بالنتيجة التي تقود إلى تطبيق وصايا المهدي التي تحث على الصبر على المكاره ، والأحداث ، ومقارعة الخطوب بعزيمة ، وطول أناة ، وعدم

الاستسلام إلى اليأس والقلق ، فكان عليه أن يطبق هذه الوصايا ، ويجعلها نبراساً يهتدي به في حياته ، ولكن بالإضافة إلى كل ذلك رأى أن لا بد من استعمال الحيلة ، والحكمة ، فقد خشي من أن يؤدي إعلان نبأ الوفاة فجأة على الشعب إلى وقوع اضطرابات ، واندلاع ثورات ، أو ربما انتفاضة سريعة تطيح بالأسرة الفاطمية الحاكمة .

وأدخل في حسابه أن القواد لم يبايعوه ، ولا ولاة الأقاليم ، ولا العلماء ، ولا رؤساء القبائل ، مضافاً إلى كل هذا أن الأعداء المتربصين ، والمعارضين ينتظرون مثل هذه الفرصة ... ينتظرون غياب العقل المدبر للدولة ليقوموا بأعمالهم المقررة ، وكل هذا جعل القائم يكتّم خبر الوفاة ، ويعلن للناس بأن الخليفة يشكو من مرض بسيط ، وأنه لا يلبث أن يتعافى ، ويخرج للناس ، ومن جهة ثانية أرسل بطلب المخلصين والمقربين من رجال الدولة ، وخاصة « الكتاميين » فطالبهم بمبايعته للخلافة تنفيذاً لأوامر «المهدي»، ورغبته قبل موته ، وهكذا فعل بالنسبة لقواد الألوية ، والكتائب ، وأمراء الجيش ، ورؤساء القبائل ، والولاة ، والعلماء ، وأصحاب الرأي في الدولة ، وبعد أن تمّ كل شيء أعلن عن الوفاة رسمياً .

التاريخ لم يغفل وصف وقع المصاب على الشعب المغربي ،

فقد أثار حزنهم غياب المصلح الكبير ، والخليفة العظيم الذي بذل كل ما يستطيع في سبيل إسعادهم ، وإيصالهم إلى كل ما يتمنوه من الراحة ، والعيش الرغيد .

وأخيراً : ودع الشعب القائد الوداع الأخير ، ودفنوه في المدينة التي تحمل اسمه بين الدموع والحسرات ، وهنا لا بد من التساؤل . . . هل كان تدبير القائم بتأجيل إعلان الوفاة كافياً لإخماد ثورة المعارضين ، والناقمين ، والمتربصين ، والحد من مؤامراتهم ، وهل قضى بتدبيره هذا على كل آمالهم ، وهل الأقاليم البعيدة جمدت كل فكرة للانتفاض ، وهل الهدوء ، والأمن ، والاستقرار سيعم كافة أرجاء الدولة بعد موت المهدي ؟

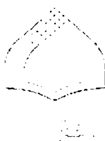
إن الجواب على هذا السؤال ، سيظهر جلياً واضحاً في الصفحات التالية التي سنتناول فيها حياة «القائم بأمر الله» ، فهي وحدها تحمل في سطورها الوقائع ، والتفصيلات لتلك المدة التي قضاها الخليفة الفاطمي الثاني على مقعد الحكم . . . تلك المدة التي كانت مشحونة بالحروب ، والثورات العنيفة ، ولعلها من أصعب الفترات التي يواجهها حاكم . ويكفي أن القائم في خلالها لم تغمض له عين ، ولم يهدأ له بال ؛ كما لم

تعرف الراحة إليه سبيلاً ، وحينما نعلم أن أبواب عاصمة ملكه المهدية قد دقّت من قبل الثائرين أكثر من مرة ،وأن سكانها اضطروا للنزوح عنها ، ولم يبق فيها إلاّ حامية للدفاع كان القائم نفسه على رأسها . . . أجل . . . عندما نعلم أن عائلة القائم نفسها نزحت عن المهدية إلى بلد آخر فراراً من الأخطار المحدقة بها ، أدركنا أية صعوبات واجهت القائم وهو في مستهل حكمه .

قد تكون الأسباب كثيرة ، والعلل وفيرة ، فهذه الأقطار المغربية المؤلفة من شعوب غير متجانسة ، وغير مرتبطة تعودت على حياة الثورات ، والحروب ، والفوضى ،فكل استقرار ، أو حكم عادل ، أو أمن موطّد لا يتفق وطبيعتها ، وحياتها القبيلية ، التي تعشقوا مبادئها ، ورضعوا لبانها ، وأعتقد أن تعاليم المهدي ، وإصلاحاته ، وتدابيره ، وما حققه لهذه البلاد من ازدهار ، وعمران ، وأمن ، لم يخفف من ثقل الحياة القبيلية أو يذهب آثارها إلاّ لدى قلة من الناس ، وأنّى له أن ينتزع من النفوس ، بل من الدماء ، هذا الشعور الموروث من مئات السنين .

ومهما يكن من أمر ، فالشعوب التي تنتقل من حالة

قديمة ، إلى حالة جديدة بسرعة لا بد لها من المرور بمراحل صعبة ؛ والمغرب ذلك البلد الذي تحوّل بسرعة إلى دولة ذات كيان ، كان لا بد له وهو في مطلع عهده أن يتعرض طبيعياً للأحداث ، وللمفاجآت ، وللعواصف الهوجاء .



الخليفة الثاني
القائم بأمر الله

ولد الخليفة الفاطمي الثاني « القائم بأمر الله » في مدينة «سلمية » ،سورية سنة٢٧٩هـ وشبّ وترعرع في ربوعها ،وشاهد بل عاصر ، وهو في مقتبل العمر الثورة القرمطية تنبعث عنيفة صاخبة ضد أسرته الفاطمية ، وتهددها ، وتقض مضاجعها ، ثم تضطر من سلم منها في خاتمة المطاف إلى الفرار نحو المغرب ، كما شاهد العباسيين ومظالمهم ، ومطاردتهم ، وقتلهم أبناء عمومته من « العلويين » في كل مكان ، فحمل منذ صغره بغضهم وكرههم ، كما أضمر لهم كل حقد ، وانتقام .

شارك « عبيد الله المهدي » آلامه ، وأفراحه ، فكان ، رفيقه ، وأمين سره ، وابنه المطيع ، وتلميذه الذي يتلقى منه التعاليم ، والتوجيهات برحابة صدر ، ويدخل في هذا النطاق دروس التمرس على الشؤون السياسية ، والإدارة ، والقيادة ،

والاضطلاع بشؤون الحكم ، وأخيراً كان رفيقه في رحلته الشاقة العجيبة من «سلمية – سورية» إلى «سجلماسة» في المغرب ، عبر فلسطين ، ومصر ، وليبيا ، وتونس ، تلك الرحلة التي تغنّى بها المؤرخون ، والأدباء ، وأفردوا لها الصفحات الطوال مشيدين ببراعة المهدي ، وحسن تصرفه ، ورجولته ، ومتانة أعصابه ، وقد ذكرنا لمحة عنها في الجزء الأول من الموسوعة الخاص «بعبيد الله المهدي» ، ولكنّا لم نشر إلى ما تحمله القائم بأمر الله الشاب الطري العود من آلام الغربة ، ووقع المصاب الأليم الذي حلّ بأسرته في «سلمية» على أيدي القرامطة . . . ناهيك عن مشقات السفر ، وتعرضه للسلب ، والقتل ، والتهديد ، وأخيراً عذاب وآلام السجن في «سجلماسة» .

ومما لا شك فيه ان المهدي كان معجباً بالقائم ، وبمؤهلاته ، وهذا الإعجاب جعله يختاره من بين كافة شباب الأسرة الفاطمية ليكون رفيقاً له في رحلته ، ثم يعهد إليه بولاية العهد بمجرد أن أقام دولته الفاطمية . فمحضه ثقته ، وأناط به أعظم مسؤولية في الدولة ، وأعني بها قيادة الجيوش ، وفتح الأمصار ، وتأديب الخارجين ، وإخماد الفتن والثورات التي تهدد أمن الدولة ، ووجودها ، واستقرارها ، وبالفعل بعد وفاة المهدي تسلّم شؤون الملك سنة ٣٢٢هـ ، ونودي به خليفة للمسلمين . لُقّب «بأبي القاسم» ، وتوفي في «المهدية» ، ودفن فيها

سنة ٣٣٤هـ، إذن فتكون المدة التي عاشها في «سلمية – سورية» سبعة عشر عاماً، والمدة التي قضاها في المغرب في ولاية العهد خمسة وعشرين عاماً، أما مدة بقاءه في سدة الخلافة فاثني عشر عاماً، وهكذا يكون مجموع عمره خمسة وخمسين عاماً.

مصادر التاريخ قليلة ونادرة جداً عن حياة القائم، وطفولته، ونشأته في «سلمية»، فهذه المصادر أغفلت ذكر المربين، والمدرسين، الذين تولوا أمر تربيته وتعليمه كعادتها إغفال كل شيء عن هذه الأسرة التي كانت تعيش كما ذكرنا في سرية تامة، وفي تقيّة عجيبة، تنتحل الأسماء والصفات، وتختفي عن عيون الناس تهرباً من عيون العباسيين، وملاحقاتهم، غير أن هذا كله لا يمنعنا من القول بأن «القائم بأمر الله» عاش منذ أن رأى النور في كنف «عبيد الله المهدي»، وفي رعايته، وتحت إشرافه فهو الذي احتضنه، وربّاه، وثقفه، ودربه، وهيأه لولاية العهد، ثم للملك فيما بعد، ولعمري أن هذا يبدو كافياً لإصدار الحكم على شخصيته، ووصفها بأنها كانت أنموذجاً بارزاً، ونوعية فريدة في ذلك العصر، فمن المؤكد بأنه لولا ثقة المهدي بقدرته وتفوقه، ومؤهلاته، لما عهد إليه بولاية العهد، وبمسؤولية القائد الأعلى للجيش الفاطمي، ولما كان وجهه في المهمات الصعبة الشاقة التي

يفترض بصاحبها أن يكون على مستوى عال من المعرفة والرجولة وبعد النظر ، والخبرة بشؤون الأقاليم ، وما يتفرع عنها من أمر مداراة الناس ، وتحقيق رغبات الأهلين ، والقبائل ، والشعوب وإنصاف الضعفاء ، والمظلومين ، وإيصالهم إلى حقوقهم ، وكل هذا ليس بالأمر السهل في بلاد كشمالي أفريقيا ، ولا شك بأن المهدي لم يقدم على هذا الاختيار إلاّ بعد وثوقه من قدرة القائم ، وأهليته للاضطلاع بهذه المهمات الكبرى .

ذكرت بعض المصادر التاريخية :

بأن «القائم بأمر الله» تزوج بعد عشرة سنوات من وصوله إلى أفريقيا الشمالية بفتاة تنحدر من أسرة أمراء كتامة «العمّاريين» وهذه الأسرة لعبت دوراً بارزاً على مسرح الأحداث في تاريخ المغرب ، فكانت درع الفاطميين ، بل كانت الركن الأساسي لدولتهم ، وعندما نعلم أن من أفرادها ، بل من قوادها «جعفر بن فلاح» القائد الفاطمي الذي فتح الشام بعهد الخليفة الفاطمي الرابع «المعز لدين الله» وأبناء عمّار الذين استوطنوا «طرابلس – لبنان» ، وأقاموا فيها باسم الفاطميين كقضاة يعملون للعلم والأدب ، فإلى هذه الأسرة الكبيرة يعود الفضل بتأسيس المكتبة الفاطمية الكبرى في طرابلس التي لم يكن يعادلها مكتبة

أخرى لا في المشرق ، ولا في المغرب ، وهي التي أحرقها الصليبيون عندما استولوا على هذه المدينة .

أجل ... عندما نعلم ذلك ندرك أن «القائم بأمر الله» أراد من هذا الزواج السياسي أن يقيم قاعدة شعبية له ، يعتمد عليها ، ويستند إليها عند حدوث المفاجئات أو بلغة أصح أقرباء يحملون السلاح زوداً عنه ، وعن ملكه .

بعضهم ذكر أن زوجته كانت من «الأدارسة» ، وهذه الأسرة كما مرّ معنا تمتُّ للفاطميين بصلة القرابة ، فهي مشرقية مثلهم ، وتنتمي «للحسن بن علي بن أبي طالب» وكانت قد لجأت إلى شمالي أفريقيا ، وأقامت دولتها سنة ١٦٩ كما ذكرنا .

قال عنه المستشرق «برنس مامور» :

كان رجلاً غامضاً عميقاً ، لا يسبر غوره ، ولا يحاط بمداه . . . يأخذ بالقوة والحزم في الحوادث الطارئة ، واستطلاع الأمور ، وكان داهية له نظرة فاحصة تصل إلى أعماق السرائر ، وخفايا النفوس ، وشجاعاً لا يلين ، وكان عارفاً ، وذو خبرة باختيار الرجال ، واصطفاء الأصدقاء ، وبالإضافة إلى كل ذلك كان صبوراً ، وطيب القلب ، يحب عمل الخير ، والإحسان ، وفياً للشعب ، ويحب إنصافه ، وإسعاده ، وخاصة الطبقة الفقيرة العاملة ، وكان محباً للحروب وللمغامرات يباشرها

بنفسه ، وينازل الأبطال في الميادين ، وعرف عنه سعة حيلته في أساليب القتال ، واستعمال الخديعة في بعض الأحيان .

وبالنسبة للعلم ، وللأدب ؛ فقد عرف عنه تقديره ، ورعايته ، وعطفه على طبقة المتأدبين ، والمؤلفين ، والشعراء ، يدلنا على ذلك اتصاله بكافة العلماء في عصره سواء بالمغرب أو بالمشرق ، وقد ذكر التاريخ أن الفيلسوف الكبير « أبو حاتم الرازي » الذي كان موبجاً بشؤون الدعاية في أقاليم «الديلم ، وطبرستان ، وأصبهان ، والري» ، قد أهدى كتابه القيم « الزينة » إلى الخليفة «القائم بأمر الله» ، وهذا الكتاب هو معجم في الاصطلاحات الفلسفية ، واشتقاق الكلمات ، أو بلغة أصح دائرة معارف قائمة بذاتها ، ومن المشهور عن «أبي حاتم الرازي» أنه ناظر « أبو بكر الرازي » ودحض آراءه في الكثير من النظريات الفلسفية والطبية ، مضافاً إلى ذلك يعزى إليه دخول « الأصغر بن شيرويه » أمير قزوين وقائده « مرداويج ابن زيار الديلمي » في الدعوة الفاطمية ؛ وكل هذا يعطينا الدليل الدامغ على رعايته للعلم ، والعلماء ، بالرغم من أن أحداث بلاده الداخلية لم تكن لتساعده ، أو لتعطيه الفرصة السانحة للسهر على هذه الأمور الحيوية ، وتوليتها ما تستحقه من عناية واهتمام .

العودة الى الاحلام الفاطمية :

في الكتاب الأول من الموسوعة ، وفي الصفحات الأولى من هذا الكتاب ذكرنا الكثير عن تطلعات الفاطميين إلى الديار المصرية ، وأحلامهم في امتلاكها ، وضمها إلى دولتهم المغربية ، فمصر منذ البدء كانت هدفهم الأول ، ومهوى افئدتهم ، بل ومنذ أن أسسوا دعوتهم السرية في المشرق ، ومما يذكر عنهم أنهم لم يتوقفوا يوماً عن توجيه الدعاة إلى هذا القطر ، وتزويدهم بالتعاليم، والأفكار ، فأهدافهم كانت ترمي إلى جعله ملكاً لهم في يوم ما يتخذونه قاعدة لدولتهم ، ونقطة للعبور إلى المشرق حيث «القدس،ودمشق ، والمدينة المنورة»، مضافاً إلى ذلك ما يتمتع به هذا القطر من ثروات ، وموقع جغرافي هام ، ومتوسط بين الشرق والغرب ، وهذا يمكنهم من بسط سيادتهم على البحر الأبيض المتوسط ، والنفاذ منه إلى بحار أخرى ، وممالك أكثر غنى وثروة .

ومن جهة ثانية فقد آلم «القائم بأمر الله»، وحزّ في نفسه أن تعود الحملات الثلاث التي قادها بعهد الخليفة المهدي، وهي تجر أذيال الفشل، والخيبة ... تلك الحملات التي أثقلت كاهل الدولة بنفقاتها، ومصروفاتها، وجعلتها في حالة من العجز، والانهيار الاقتصادي وهي في مستهل حياتها.

من هنا فإن «القائم بأمر الله»، ومنذ اليوم الأول لتسلمه شؤون الملك فكر بمصر، وبالزحف على مصر كأول عمل يدشن به عهده الجديد، فعهد إلى «ميسور الفتى» وهو أحد القواد الكتاميين المجربين - وكان موضع ثقته - بأن يسير على رأس جيش كبير إلى «برقة» ويتمركز فيها بانتظار الأوامر، وكانت المعلومات التي وردته من المشرق تشير إلى أن العباسيين أصبحوا في وضع داخلي لا يسمح لهم بإرسال الجيوش للدفاع عن مصر، أو أي إقليم آخر تابع لأمبراطوريتهم، ففي بغداد كانت حالة الدولة مضطربة أشد الاضطراب مضافاً إلى أن ممتلكات الدولة في الخارج تكاد تضيع الواحدة اثر الأخرى، فأفريقيا الشمالية، والأندلس، ومصر مهددة بالغزو، واستقل الحمدانيون بالموصل وشن البيزنطيون غاراتهم على الحدود المتاخمة، وقام بعض أمراء الولايات ينادون باستقلال ولاياتهم، وصار الخليفة آلة بين أيدي رجال البلاط،

وذوي الأطماع ، تحت رحمة حراس أجانب يأتمرون بأوامر القواد الأتراك وغيرهم . وأصبحت أو كادت تقع البصرة في يد «ابن رائق»، وخوزستان في يد «البريدي»، وفارس في يد «بني بويه»، وكرمان في يد «محمد بن الياس»، والري وأصبهان والجبل في يد «بني بويه» أيضاً ، ومصر والشام في يد «محمد بن طغج»، وخراسان وما وراء النهر في يد «نصر بن أحمد الساماني» وطبرستان وجرجان في يد «الديلم»، والبحرين واليمامة في يد «القرامطة»، وهناك أشد وأدهى وهو ثورة القرامطة (الفرع الثاني) وغزواتهم المستمرة على بعض مدن الشام وبغداد ، أما الفاطميون في المغرب ، والأمويون في الأندلس فكلاهما يناصب العباسيين العداء ، ويعمل في السر والعلنية على تقويض أركان دولتهم .

أجل . . . أدرك القائم وهو في بدء عهده بأن امتلاك مصر ضرورة للدولة الفاطمية ، فمصر كانت منذ القديم الأرض الصالحة لتقبل الدعوات الشيعية . . . إنها بلاد آمنة ، وشعبها ميّال بطبيعته إلى الهدوء ، والأمن ، والاستقرار ، كما رأى القائم أن مواردها لا يمكن مقارنتها بموارد دولة أخرى ، كما أن موقعها أكثر ملاءمة وصلاحاً لتكون عاصمة الدولة الفاطمية ، ومركز انطلاق إلى قلب الدولة الفاطمية .

لقد ذكرت بعض المصادر التاريخية أن الفاطميين في حملاتهم الثلاث التي أرسلوها إلى مصر كانوا يدمجون في صفوف جيوشهم بعض الدعاة المجربين الذين يملكون القدرات العلمية ، وأساليب الدعاية ، فيرتدون ثياب قواد الجيش ، وكانت مهماتهم الاختلاط في صفوف الشعب ، والتحدث إلى الأهلين ، وترغيبهم بالانتماء إلى الدولة الفاطمية وتعاليمها الشيعية ، وهكذا فإن اهتمامهم بمصر لم يتوقف عند حد ، كما أن النجاح الذي أصابوه في عهد الخليفة الرابع «المعز لدين الله» يعود إلى الدعايات المبكرة التي انطلقت من«سلمية» تارة ، ومن المهدية أخرى ، وأخيراً أثمرت الأثمار ، وأتت أكلها ، وتم حصاد ما زرعته الأيدي .

ولكن لا بد لنا من التساؤل . . . هل صدقت أحلام الخليفة الثاني «القائم بأمر الله» ؟

إن الأحداث الرهيبة العنيفة التي وقعت في الدولة الفاطمية، اثر وفاة المهدي ، والتحركات ، والثورات التي اندلعت في المناطق القريبة والبعيدة على السواء أوحت بأن أحلام القائم لم تتحقق ، فأعداء الدولة الفاطمية استيقظوا من سباتهم ، وهرعوا لتنفيذ مخططهم بعد وفاة المهدي . . . في حياته كانوا ينامون على رماد ، وينتظرون سنوح الفرصة ، ومن الثابت أنهم

اعتقدوا بأن الخليفة الثاني «القائم بأمر الله» ، مهما أوتي من العبقرية ، والذكاء ، والرجولة ، فلا يمكن أن يثبت في المجال ، وأن يكون مثل المهدي قادراً على ضبط الأمور ، وإقرار الأمن والاستقرار ، فلا بد له من أن ينوء تحت حمل الحكم الثقيل والتوقف عن إكمال الشوط ، وهذا كان من الأسباب التي جعلت القائم يعمد إلى تجميد كل هجوم على مصر ، ثم يصدر أوامره للقائد « ميسور » بالعودة فوراً مع جيوشه من «برقة» ، فهذه الجيوش سيناط بها مهمة الدفاع عن الدولة التي باتت تحت رحمة الثورات العنيفة تتحرك في كل مكان مهددة منذرة .

طلائع الثورات
اول الغيث :

أوردنا في الجزء الأول من الموسوعة لمحة موجزة عن ثورة «موسى بن أبي العافية» هذا الثائر الأدريسي الفاسي العنيف الطامع بالملك المتردد الرأي ، الذي لم يكن ليقف عند حد من الحدود ، فهو تارة يعلن الولاء للفاطميين ، ويسير مع قوادهم في الأقاليم يدلهم على مواقع الأعداء ، والثائرين ، أو الخارجين على أوامر الدولة العليا لقاء وعد بتوليته منصباً ، أو أجراً ، أو إمارة صغيرة في إحدى المقاطعات وتارة يتوجه إلى الأندلس متسكعاً على أبواب أصحابها الأمويين طالباً منهم العون لاسترجاع بلاده المحتلة ، معاهداً على الثبات ، والإخلاص والخضوع ، والدخول في طاعتهم ، والمناداة باسمهم ، وكنا ذكرنا أنه في عهد المهدي أصيب بالخذلان ، وبضربة قاصمة ألجأته إلى الفرار لجهة مجهولة ، والتخفي عن الأنظار ، ولكن

ما كاد وجه الخليفة المهدي يغيب عن الوجود حتى خرج من مخبأه ، متسللاً إلى قلب البلاد ، وهناك أخذ ينفخ في بوق الثورة ، والعصيان محرضاً الناس على خلع طاعة القائم ، داعياً إلى الانخراط في جيشه المكلف باسترجاع أراضيه المغتصبة ، وليس غريباً أن يفتح له الخليفة الأموي «عبد الرحمن الناصر» أبواب خزائنه ، ويمده بكافة الاحتياجات ، والمتطلبات ، وكان أن نزل في مدينة «فاس» بادىء ذي بدء ، فاتخذها قاعدة له ، ومنها انطلق إلى جهات أخرى ، وقبل انطلاقه دعا «أحمد ابن بكر بن عبد الرحمن الجزامي» للتعاون معه فاستجاب له ، وقام بمهاجمة والي فاس من قبل القاطميين المسمّى «حامد بن حمدان» فقتله وقدم رأسه إلى «موسى بن أبي العافية» الذي أرسله بدوره إلى الناصر الأموي «بقرطبة» وكانت هذه الهجمة الانتفاضة الأولى أو أول الغيث .

أجل . . . انطلق موسى إلى البلدان المجاورة ، فانتزعها الواحدة تلو الأخرى وبسط نفوذه عليها ، وكان يجند منها الجنود ، ويضمها إلى جيشه الزاحف الذي كان يتلقى المعونات المالية ، والغذائية ، والعتاد باستمرار من «قرطبة» عاصمة دولة الأمويين كما ذكرنا ، وبعد أن فرغ من احتلال المنطقة المحيطة بفاس بكاملها ، توجه إلى الريف وبلاد «غمارة» ،

وكانت هذه البلدان تحكم من قبل الأدارسة الموالين للفاطميين ، وكان لهم فيها قوى كبيرة ، فأنذرهم بالتخلي عن الفاطميين ، والانضمام إليه ، وعندما رفضوا طلبه أعلن عليهم الحرب ، وبعد سلسلة من المعارك تمكن من احتلال بلادهم ، وإخضاعهم إلى نفوذه .

هذه الانتصارات السريعة ، بل هذه المفاجئات المذهلة ، والغير منتظرة وما رافقها من جرائم وحشية ، وأعمال بربرية كان جيش «موسى ابن أبي العافية» يقترفها في المدن والقرى التي دخلها ، حركت القائم بأمر الله ، وجعلته يقرر بأن هذه الثورة الكبرى التي يموِّلها الأمويون أصبحت تهدد الدولة الفاطمية مباشرة ، ولا بد من القضاء التام عليها مهما كانت النتائج ، ولهذا أعدّ جيشاً كبيراً ، وأضاف إليه القوى التي استقدمها من «برقة»، وكان قد أعدها لغزو الديار المصرية كما ذكرنا . فعيّن على هذا الجيش « ميسور الفتى » من زعماء كتامة ، ومن القواد الكبار الذين عرفوا بإخلاصهم للفاطميين ، وبسعة نظرهم ، ودرايتهم ، وإقدامهم ، فزحف إلى فاس ، وطوقها ، ثم أنذر حاميتها بالاستسلام ولكنها أبت الاستجابة للنداء ، فأحكم عليها الحصار الذي دام سبعة أشهر ، وعندما علم موسى ارتد مع جيشه وجاء إلى فاس رامياً فك الحصار عنها ،

ولكنه لم يتمكن، لأن «ميسور» دخلها عنوةً ، وألقى القبض على حاكمها «أحمد بن بكر» ثم كبله في الحديد ، وأرسله إلى «القائم بأمر الله» في المهدية ، وكان ذلك سنة ٣٢٣ هـ .

أما موسى فبعد أن خاض جيشه عدة معارك مع ميسور ، وجد أن لا قدرة له على الوقوف بوجه هذا الجيش الفاطمي الكبير الذي يقوده قائد عرف بعنفه وسعة تدبيره ، وواسع حيلته ، فترك فاس ، وسار إلى «ناكور» وهي حاضرة «صنهاجة» وتقع في المغرب الأقصى على الساحل ، فتمكن من احتلالها ، وقتل كل من كان فيها من الموالين للدولة الفاطمية ، وهذا الفعل اعتبره المطلعون مقدمة لانهيار موسى وخذلانه، لا سيما وقد أثبت انه رجل متعطش لسفك الدماء ، يروقه القتل ، وتدمير المدن ، والعبث بكل شيء دون رادع من ضمير ، أو خوف من عقاب ، وكل هذا جعل الناس يتنبأون له بنهاية عاجلة .

هذه الأخبار المزعجة ، وتلك الجرائم الوحشية وصلت إلى أسماع الخليفة القائم بسرعة ، فأمر بتشكيل جيش آخر عهد بقيادته إلى «صندل الفتى» الكتامي ، وهو ابن عم «ميسور» وقيل بل شقيقه ، ثم أعطاه الأوامر المشددة بضرورة استرداد «ناكور»، والقضاء على ثورة موسى بأي طريقة كانت

فامتثل «صندل» للأمر، وغادر المهدية سنة ٣٢٣هـ وعندما وصل إلى ناكور ، وجد أن السلطة الفاطمية قد زالت عن المدينة وما يجاورها كلياً ، فعجّل بدخولها وعين حاكماً عليها «مرمازو» وبعد أن وطّد الأمن في ربوعها وأزال كل أثر لموسى عنها ، يمّم شطر فاس . وكان موسى قد عاد إليها ثانية بعد أن تمكن من إعداد جيش كبير بمساعدة الأمويين الذين فتحوا خزائنهم ثانية ، وأغدقوا عليه المساعدات الوفيرة ، وفي تلك الفترة بالذات بدأت الأحداث تتفاعل ، وتتخذ أشكالاً مختلفة ، حاملة للقائم المتاعب الجديدة ، والعثرات المفاجئة ، فقد قامت ثورة أخرى من جانب ثانٍ . وبرزت أكثر عنفاً وقوة ، يقودها «محمد بن خزر الزناتي» ويمولها «الناصر» الأموي أيضاً، وكان أول عمل قام به مهاجمة مدينتي «تاهرت ووهران» ومنهما بدأ بالزحف باتجاه المغرب الأوسط ، وكانت هذه الخطوة جزءاً من مخطط يرمي إلى الاستيلاء على كامل المغرب الأقصى ، وتحقيق أحلام «الزناتيين» بإقامة دولتهم الكبرى .

المطلعون على وقائع الأمور ، وتاريخ المغرب قرروا أن ثورة الزناتيين هذه لم تقم إلاّ للتخفيف عن «موسى بن أبي العافية» أو بلغة أصح لتفسح المجال أمامه للتقدم، بعد أن يصبح القسم الأكبر من الجيش الفاطمي منشغلاً بقتال الثورة الثانية ،

والمعنى أن ثورة الزناتيين جاءت في تلك الفترة لتكون رديفاً لثورة موسى ، وقد علم أنهما كانتا على اتصال دائم يتبادلان المشورة ، والتفاهم على الخطط الحربية ، وحركات الجيوش في البلدان والأمصار ، وهنا أدرك «القائم بأمر الله» بأنه أصبح أمام خطر داهم محدق به وبدولته وأنه تحت رحمة فكّي كماشة بدأت بعيدة ثم أخذت تقترب رويداً رويداً للإطباق عليه ، ولم يغب عن باله في تلك الساعات الحرجة أن أقل انسحاب لجيوشه من منطقة فاس سيشجع موسى على العودة إليها ، وإضرام النار فيها ، كما أن الاحتفاظ بهذه الأعداد من الجيوش لحماية منطقة فاس يشجع الزناتيين على التمادي بفتوحاتهم ، والانقضاض على مواقع جديدة ، وهذا كله جعله يتحرك بسرعة ، ويحضر إلى فاس بنفسه ، وهناك عقد سلسلة مع أهالي المدينة وأصحاب الحل والربط فيها ، فدرس معهم مختلف المواضيع على ضوء الأحداث، وفي النهاية توصل إلى اتفاق يقضي بتوقيع معاهدة صلح لقاء دفع عشرة آلاف دينار في العام لخزينة الدولة على أن تبقى الخطبة باسم الفاطميين وهكذا العملة التي تحمل شعار الدولة الفاطمية ، وبعد أن تمّ ذلك عاد القائم إلى المهدية ، وأعطى أوامره إلى القائد ميسور بالتحرك ومغادرة منطقة فاس إلى حيث يعسكر موسى لتأديبه والقضاء

عليه مهما كانت النتائج والتضحيات . وكانت الأخبار في تلك الساعة قد ذكرت بأن موسى قد وقّع معاهدة مع الخليفة الأموي «عبد الرحمن الناصر» . أو بلغة أصح حلف عسكري يقضي بالدعوة للأمويين على المنابر في كل بلد أو قرية يدخل إليها ، ويتم تحريرها . وعلى الأخص البلدان الخاضعة لحكم الأدارسة .

وأخيراً وصل «ميسور» إلى حيث يخيم موسى وجيوشه الجرّارة ، وذكر أنه كان يتأهب للزحف على «تلمسان» ، وهناك تصدّى له ميسور بجيوشه الجرارة . ودارت المعارك العنيفة بين الجيشين . فكانت الحرب سجالاً لعدة أيام بذل في خلالها كل منهما جميع ما عنده من أساليب الحرب . وفنون القتال . وتشاء الظروف في تلك الأيام الحرجة أن تساعد الفاطميين على تخطي العقبات . فتهرع أعداد كبيرة من قوات الأدارسة إلى الانضمام إليهم تخلصاً . وانتقاماً من موسى . وجرائمه . واعتداءاته ، وبهذا تمّ لميسور السيطرة على ميادين القتال . وتحقيق انتصارات سريعة حاسمة . ففي فترة قصيرة تمكن من القبض على أحد أبناء موسى . وكان يقود إحدى الكتائب ، فكبله ، وبعث به إلى المهدية ، وبعد ذلك توالت الانتصارات . وفي المعركة الأخيرة تركت جيوش موسى الميادين . وولّت الأدبار أمام جيوش الفاطميين الظافرة . فلحق بها ميسور .

وأعمل فيها السيف ، وما زال يتبعها ويسد عليها منافذ الطرق ، والهرب حتى انقسمت إلى شرازم منعزلة عن بعضها البعض في السهول ، والجبال . أما موسى فقد لاذ بالصحراء ، واختفت آثاره ، ومنذ ذلك اليوم انقطعت أخباره ، ولم يعرف مصيره ، وكانت هذه الضربة كافية لإخماد صوته ، وصوت ثورته العنيفة التي شغلت الدولة الفاطمية ، وكلفتها الكثير من الضحايا ، والنفقات .

بعد أن تمّ لميسور ذلك أرسل كتاباً إلى «القائم بأمر الله» يعلمه فيه بما حققه من انتصارات ، فأرسل إليه أمراً بأن يولي الأدارسة الذين عاونوه ، وساروا في ركابه لقتال موسى على كافة الأجزاء التي تمّ تحريرها ، وأن يمنحهم الصلاحيات التامة للحكم ، وأن يقرهم على كافة الأجزاء التي تمّ تحريرها ، وأن يعطيهم كل ما يمكن من المساعدات ، وهكذا أعاد «القائم بأمر الله» لهذه الأسرة بعض نفوذها ، واعتبارها وملّكها كافة أجزاء المغرب الأقصى ، أما الأدارسة المذكورين فقد التزموا من جهتهم بالمبادىء الفاطمية ، وظلوا على ولائهم ، بالدعوة لهم على المنابر ، والطاعة لخليفتهم ، والرجوع إليه في القضايا العليا ، وكان يقودهم في تلك الفترة « الحسن بن أبي العيش » الذي قاد الجيوش مع ميسور ، ودخل تلمسان سنة ٣٢٥هـ ،

ومنها توجه إلى مدينة « أصيلة » وما يجاورها ، فاستولى عليها ، وأعلن فيها الخطبة باسم «القائم بأمر الله» .

أما القائد ميسور فعاد إلى «القيروان» ، وفي طريقه عرج على شطر أفريقيا ، فاستولى على « أرشكول » وهي قاعدتها المهمة ، وولّى عليها « يحيى بن إبراهيم » ثم انتقل إلى «وهران» فاستولى عليها ، وأعادها إلى الحظيرة الفاطمية ، وقبل أن يصل إلى «القيروان» ، عرّج على «تاهرت» فقضى فيها على ثورة « أبو القاسم بن مصّالة » ثم عاد إلى «القيروان» رافع الرأس ، يجر أذيال النصر .

إن ثورة « موسى بن أبي العافية » العنيفة التي شغلت «القائم بأمر الله» وهو في مستهل عهده ، كلفت الدولة الفاطمية المتاعب ، والنفقات ، وهذه الثورة التي تميزت بعنفها كادت تنتصر في نهاية المطاف لولا ارتكاب قائدها موسى الأخطاء واستباحته الدماء ، وخرقه الحرمات ، وكل هذا سبّب النقمة العارمة عليه ، وأوغر صدور الناس في كل مكان ، وجعل الكثيرين من رجاله يهرعون إلى الالتحاق بميسور . ويجب أن لا يغرب عن بالنا بأن الدعاية في الحروب ، واستعمال اللين والطيب والأخلاق الحميدة مع المواطنين الذين يقعون تحت الاحتلال ،

لها تأثيراتها في حياة الفاتحين . والانتصار في المعارك،فالفاطميون اعتمدوا الدعاية ، وركزوا عليها أكثر من اعتمادهم على السيف ، نقول هذا ونحن نرى أنهم لم ينتصروا على موسى ابن أبي العافية إلاّ بعد أن تمكنوا من التأثير على قوات الأدارسة وإقناعهم بضرورة التعاون معهم للقضاء على ثورة موسى ، مما يسهل لهم بعد ذلك إعادة نفوذهم وبلدانهم ، كما أنهم وضعوا أمامهم صورةالفظائع التي يرتكبها ، وهكذا نجحت خطة السلام وتفرق عن موسى أصحابه ، ووصل ميسور إلى غايته وأهدافه بفضل الدعاية المنظمة . وفي كل هذا تتجلّى البراعة والمقدرة في التأثير على أفكار الناس ، واستقطابهم . وجعلهم أداة منفذة للرغبات العليا .

ثورة الخوارج
ابو يزيد مخلد بن كيداد

هو « أبو يزيد مخلَّد بن كيداد اليغرني » من قبيلة « زناتة » ينحدر من أسرة لم يسبق لها الظهور على المسرح العام . أمه جارية من قبيلة « هوارة » تزوجها والده في السودان . وأتى بها إلى « توزر » فولدت له «مخلّد»، وهو المعروف« بأبي يزيد الخارجي »الذي أسس في أفريقيا الشمالية الحركة الخارجية الدينية ، وقاد ثورتها العنيفة تحت شعار محاربة « الشيعة » أينما وجدت ، ومن المفيد أن نذكر أن أبا يزيد لم يتسنى له الظهور على مسرح الأحداث إلاّ عندما قاد الثورة الكبرى ضد الدولة الفاطمية بعهد الخليفتين «القائم بأمر الله ، والمنصور »الفاطميين . وهذا ما سنتحدث عنه الآن :

نشأ في«توزر »، واعتنق مذهب الخوارج القديم المعروف ، ثم أضاف عليه أفكاراً وتعاليم جديدة تختلف بمضمونها عن

مذهب الخوارج الأساسي ، وتفوقها عنفاً وشدة وضراوة ؛ فمذهب أبو يزيد كان يدعو علاوة على الكفر بتعاليم الشيعة ، واستباحة أموالها ، ودماءها ، والخروج عن طاعة خلفائها ، إلى الكفر بكافة المذاهب ، وإلى الإلحاد وعدم الإيمان إلاّ بالقوة وحدها ، وقد تكون هذه التعاليم خاصة بطبقة معينة من المسؤولين وقادة الحركة ، أما العامة فكانوا يعتنقون مبادىء أقرب إلى الإيمان والإسلام وفق خطط مرسومة حبكت بعناية .

بعد أن شبّ وترعرع انتقل إلى «تاهرت»، ففتح مدرسة لتعليم الصبيان ، وبعد مدة غادرها إلى « نفوس » وهناك اشترى مزرعة صغيرة ، وفتح فيها مدرسة من جديد لتعليم الأولاد ، وكان يرمي من وراء ذلك إيجاد جيل من الشباب مؤمن بمبادئه ، يحمل السلاح ويسير في الأقاليم بقصد الفتح ، والقتل ، والتدمير ، وإقامة دولة الخوارج التي بشر بها .

في سنة٣١٦هـ أعلن ثورته ، بعد أن أتمّ الاستعدادات ، ونظّم الجيوش ، ودربها وأوجد لها السلاح ، والعتاد ، والمعاش ، هبط من جبال «أوراس» يدعو الناس إلى مذهبه ، والدخول في طاعته ، وتسمّى « شيخ المؤمنين » ، أمّا الناس فكانوا ينادونه « صاحب الحمار » لأنه كان يركب حماراً

في رحلاته وتنقلاته بين المدن والقرى ، عندما كان يتجول بنشر دعوته ، والطلب إلى الناس الالتحاق به .

ومن الجدير بالذكر أنه عندما وثق من قوته ، ومن كفاءة جيوشه ، بل عندما دان له الفقهاء ، والعلماء ، والجماهير الغفيرة ، ورؤساء القبائل ، توجه إلى القيروان كمرحلة أولى ، فدخلها دون قتال ، وخطب في مساجدها ، وبشر أهلها بالخير ، ودعاهم إلى مذهبه والثورة على الفاطميين الدخلاء ، ومما يجب أن نشير إليه أن جيوش «القائم بأمر الله» كانت في تلك الفترة تقاتل في المغربين الأوسط والأقصى كما ذكرنا لاستعادة الأمن ، وتوطيد النظام والاستقرار الذي عكّر صفوه ابن العافية ، والخزر الزناتي ، وقد ذكرنا ما فيه الكفاية عنهما .

أجل . . . عندما اندلع لهيب ثورة «أبو يزيد» سار الناس وراءه بحماس شديد وباندفاع عجيب ، وخاصة البربر الذين رأوا فيه منقذاً أرسله الله لإنقاذهم من براثن الدخلاء الغرباء ، والغزاة الأجانب المحتلين ، فهبطوا معه إلى القيروان ، وفي القيروان أعطى أوامره بالانكشاف عن المدينة والمرابطة على أبوابها ، ثم وضع خطة تقضي بزرع بذور الفتنة بين سكان المدينة مما يجعلهم يتنابذون ، ويتقاتلون ، ثم يسفكون دماء

بعضهم البعض ، وبهذا يصبح بمنجاة من أقوالهم ، وألسنتهم فلا تلحقه تهمة ، أو تلصق به سمعة سيئة .

في سنة ٣١٦هـ استفحل أمره ، وعظم شأنه في قبائل البربر خاصة في منطقة «نفوس» ، والمغرب الأقصى ، وهنا اتخذ خطة بشن هجوم على قبيلة كتامة أينما كانت ، وكان في تلك الفترة قد وصل إلى مرحلة لم يعد هناك من قوة تستطيع مجابهته ، أو الوقوف بوجهه ، فاندفع في هجومه السريع ، واستولى على «بجاية» ، و «مرجنة» ، وعندما تصدت له قبيلة كتامة حاربها بعنف ، وتمكن من الإيقاع والتنكيل بها ، ثم دخل «سبتة» . واستولى على «الأربس» ، وفي طريقه كان ينهب المدن ، ويخربها ، ويعيث فساداً ، ويستبيح الأموال والدماء ، ويقتل الكثيرين دونما رحمة أو شفقة ، كما كان يبيح للجند التصرف بالغنائم والأسلاب . وكل هذا أطمع الكثيرين بالدخول في جيشه سعياً وراء المكاسب وطمعاً بالأرباح .

ولما كانت «الأربس» تعتبر الباب أو المدخل إلى العاصمة المهدية فإن سكانها انتابهم الهلع ، وخافوا على مصيرهم ، كما فقدوا كل أمل لهم بالمقاومة ، إزاء انتصارات أبو يزيد الحاسمة الذي استمر في زحفه حتى أصبح على بعد خمسة عشر ميلاً

من العاصمة الفاطمية . فنتج عن ذلك تجدد الخوف والقلق لدى الأهلين . مما دعاهم أخيراً إلى النزوح نحو «طرابلس الغرب» وصقلية . ومصر . وبلاد الروم . وهكذا لم يبق في المهدية إلاّ الخليفة القائم وحامية للدفاع .

في تلك الساعات الرهيبة من حياة الدولة الفاطمية ، أدرك القائم بأمر الله بأن الأمر جد وليس بالهزل . وأن دولته أصبحت في مهب الرياح . ولكن ماذا يستطيع أن يفعل ؟ وها هي جيوش أبو يزيد تدق أبواب عاصمة ملكه المهدية . وها أن الناس أخذوا ينزحون عنها فراراً من الموت . ولم تجد الحملات العسكرية التي أرسلها للوقوف في وجهه نفعاً . كما لم يكن باستطاعته استدعاء جيوشه البعيدة . لأنه بمجرد مغادرتها المناطق التي احتلتها ، تعود الأمور فيها إلى سابق عهدها . ومعنى هذا كارثة ثانية تحل بالدولة . وتشاء الأقدار أن تلهمه فكرة كان منها النجاح . فكتب رسالة وأرسلها على جناح السرعة إلى « زيري بن مناد » زعيم «صنهاجة» يناديه أن يخف إليه . ويمده بالعون قبل حلول الكارثة الكبرى . وكانت المهدية قد صمدت بعناد ، وامتنعت على أبي يزيد بفضل همة صاحبها «القائم بأمر الله» الذي خرج بنفسه ، وتولّى أمر الدفاع عنها . وهذا ما جعل أبو يزيد يتراجع عنها إلى القيروان .

لبّى «زيري بن مناد» طلب القائم بأمر الله ، وزحف على رأس جيوشه إلى المهدية ، وحينما أصبح قريباً من ساحات القتال ، أمر أبا يزيد بالاستسلام ، فلم يفعل وباشره القتال ، ودارت رحى معارك طاحنة لم يشهد المغرب مثل عنفها وضراوتها ولكن أبو يزيد علم منذ اللحظة الأولى بأن الخلل قد تسرب إلى قلب جيشه وأن تحقيق أي انتصار أصبح ضرباً من المستحيل، وبالفعل كان للدعاة الذين بثهم الفاطميون في قلب جيشه التأثير الكبير ، فتمكنوا من إفساد خططه ، وتأليب الجيش عليه ، ومما يجب الإشارة إليه أن عدداً كبيراً من جنود أبي يزيد تركوه، والتحقوا بجيوش الفاطميين خالعين طاعته ، نابذين أوامره ، ولم يبقَ ثابتاً معه في المجال سوى قبيلتي «هوارة» و «بني كملان» .

بعد سلسلة من المعارك اضطر أبو يزيد إلى الدخول إلى القيروان وكان قصده الاعتصام فيها ، فتبعه زيري وضيّق عليه ، مما اضطره إلى الفرار نحو الصحراء ، بعد أن فقد كل أمل له بالثبات ، وفي الصحراء ذكر أن عدداً كبيراً من جنوده هلكوا جوعاً وعطشاً .

ومهما يكن من أمر فإنه لولا صنهاجة ، ومبادرتها ، وتلبيتها نداء القائم بأمر الله لما استطاعت المهدية الصمود ،

ولكان تغيّر وجه التاريخ المغرب ؛ والحقيقة فإن صنهاجة اتبعت طريقاً واضحاً فيه المرونة والحكمة ؛ فمجرد أن تلقى «زيري بن مناد» نداء القائم بأمر الله ، توجه إلى «كتامة» وعقد صلحاً معها ، ثم جنّد خيرة رجالها ، ومقاتليها للحرب تحت راية الفاطميين .

أجل . . . لولا حراب «صنهاجة» ، وسيوف «كتامة » ، ووقوف « زيري بن مناد » هذا الموقف الإيجابي لقضت ثورة الخوارج على الدولة الفاطمية ، خاصة بعد مقتل « ميسرة الفتى » القائد الكتامي المشهور في المعركة التي خاضها في موقع « وادي الملح » ضد أبو يزيد ، تلك المعركة ذهب ضحيتها عدداً لا يحصى من جنود الفاطميين وقوادهم .

علاقة الامويين
بالثورات المغربية

التاريخ لم يبرىء ذمة الأمويين من الثورات التي قامت بعهد الخليفة الفاطمي الثاني «القائم بأمر الله» بالمغرب ، وإمدادها بالمال والعتاد ، كما لم يبرىء ذمتهم من ثورة أبي يزيد الأخيرة التي كادت تعصف بالدولة الفاطمية ، فخطة الأمويين كما ذكرنا التي اعتمدوها منذ اليوم الأول لقيام الدولة الفاطمية كانت ترمي إلى إشغال الخلفاء الفاطميين في الداخل بما يمنعهم من التطلع إلى أبعد من حدودهم ، وخاصة الأندلس .

ومهما يكن من أمر ، فإن أبا يزيد الخارجي من جهته لم يدخر وسعاً في إقامة أطيب العلاقات بالدولة الأموية في «قرطبة» ، فالرسائل كانت متبادلة مع «الناصر» الأموي والوفود ، والرسل إلى العاصمة الأندلسية كانت ذاهبة وآيبة تنقل الأخبار ، وتحمل التأييد والتشجيع ، وآخر وفد أرسله أبو يزيد إلى «قرطبة»

كان مؤلفاً من ابنه « أيوب » وجملة قواد آخرين . وقد ذكر أن «الناصر »الأموي استقبله استقبالاً حماسياً،وأحاطه بمجالي التكريم وأنزله في قصر الضيافة معززاً مكرّماً . وبعد أن أقام مدة عاد محملاً بالهدايا والتحف والأموال . ولم يكن هذا الوفد هو الأول . فقد سبقته وفود عديدة كانت غايتها واحدة . وهي تمتين العلاقات الودية . والحصول على التوجيهات .

وذكر التاريخ أن« الناصر» الأموي أرسل سنة٣٢٣هـ قائده « قاسم بن محمد » إلى عدوة المغرب لمحاربة الأدارسة الحسنيين . وإشغالهم عن مناصرة الفاطميين . وكنا ذكرنا عن دخولهم في طاعة ابناء عمومتهم بعهد «القائم بأمر الله» بعد القضاء على ثورة «موسى بن أبي العافية» . فاجتاز قاسم البحر حتى وصل إلى «سبتة »فلما علم« أبو العيش بن عمر بن إدريس » خاف على نفسه . وأسرع إلى إعلان الطاعة ثم أرسل ولده « محمد »إلى «قرطبة » ، ليؤكد للخليفة الأموي«الناصر »الإخلاص فاستقبله في قصر الزهراء أعظم استقبال . وبالغ في تكريمه . وبعد مدة تبعه العديد من أبناء عمه أمراء الأدارسة إلى«قرطبة»حيث أعلنوا الطاعة ، وعقدوا معاهدة مع «الناصر »تلزمهم بالخضوع والولاء . وإعلان الخطبة في بلادهم باسم الخليفة الأموي .

وذكر التاريخ أن«الناصر»حينما بلغه وفاة أبي العيش كتب

إلى ولده معزياً وطلبه أن يحضر لمقابلته ، فذهب وهناك عقد له ، وخلع عليه ، وعلى من معه، وعندما عاد من قرطبة توجه إلى ابن عمه « عيسى بن قنون » الذي كان قد احتوى على أهل أبي العيش بمساعدة البربر وكتامة خاصة ، فتمكن من الانتصار عليهم ، والاستيلاء على كل ما كان لديهم ، واخيراً قتلهم جميعاً ، ولم ينجُ منهم إلاّ سبعة أشخاص تفرقوا في أنحاء البلاد ، ومنهم من لجأ إلى قرطبة .

بعد كل هذا هل انتهت ثورة «أبا يزيد »الخارجي ، وغيرها من الثورات العنيفة التي انبثقت في كل مكان من انحاء الدولة الفاطمية بعهد «القائم بأمر الله »؟ في الواقع ان الاثني عشر عاماً التي قضاها القائم على مقعد الحكم كانت أعواماً مشحونة بالأحداث والاضطرابات ، فهذا الخليفة لم يعرف الراحة ، ولا ذاق لذة الحكم ، ولم تترك له الثورات سبيلاً لتحقيق ما كان يحلم به .

التاريخ ذكر :

بأن الخليفة « القائم بأمر الله » مات وثورة أبا يزيد لمّا ينطفيء أوارها ، فهذه الثورة بعد أن أخمدها «زيري ابن مناد »الصنهاجي ، عادت من جديد تحمل شعاراً لها يقضي بدخول المهدية ، وكان قد لجأ إلى الجبال يحث القبائل على

التجنيد في صفوفه ، بل يدعوها هذه المرة باسم الدين ، ومات «القائم بأمر الله» وطلائع جيوش أبا يزيد على مرمى خطوات من المهادية . وهذا ما سوف نفصله بالجزء الثالث من الموسوعة الخاص بالخليفة الثالث « المنصور بالله » .



علاقة القائم بامر الله
بالمشرق

لم يهدأ دعاة الفاطميين في المشرق عن العمل في المجال الفكري والدعائي فأمس كانوا يتلقون التوجيهات العليا من مركز الدعوة في «سلمية»، واليوم أصبحوا يتلقونها من المهدية، ومن قصر الخليفة مباشرة. فالتبشير والدعاية لم تتغير بالمضمون. وإن كان قد طرأ عليها تغيير بالشكل والمظهر، والدعاة كانوا في الأقاليم يحققون النجاحات ويسيرون من نصر إلى نصر، ويذكر التاريخ أن «نصر بن أحمد الساماني» أمير خراسان انضم في تلك الأيام. ودخل هو ودولته في دعوتهم الشيعية الفاطمية، يدلنا على ذلك كتابه المرسل إلى القائم بأمر الله، عندما علم أنه يخوض حرباً مريرة مع أعداء دولته. قال:

«أنا في خمسين ألف مملوك يطيعونني، وليس على القائم بهم كلفة ولا مؤونة فإن أمرني بالمسير سرت إليه، ووقفت بسيفي، ومنطقتي بين يديه، وامتثالاً لأمره».

وكان «مرداويج بن زيار الديلمي» أحد قواد الأصفر أمير «قزوين» الذي خلع عن العرش من قبل «مرداويج»، واستولى على «الري، وأصبهان»، قد بعث إلى المغرب الرسل يحملون الهدايا، والأموال الكثيرة للمهدي وللقائم معلناً لهما رغبته في القدوم والمساهمة في الفتح. وهكذا فعل «يوسف بن الساج» عندما أرسل إلى القائم الرسل مع الأموال والهدايا؛ وعبارات الطاعة، والولاء.

إذن نستطيع أن نؤكد بأن أطماع الفاطميين بالملك، والحكم، وتوسيع رقعة أمبراطوريتهم المرتقبة لم تكن تتوقف عند حد، فبالرغم من استيلائهم على رقعة كبيرة من أفريقيا الشمالية فإن أنظارهم لم تتحول عن المشرق مهوى أفئدتهم، ومناط آمالهم، ومثوى أجدادهم. وقد يكون انشغال الخلفاء الثلاثة: «المهدي، والقائم، والمنصور» بالشؤون المغربية هو العامل الأول لاتخاذهم هذا الموقف الصامت المتريث الذي أملته عليهم أوضاع دولتهم الداخلية.

بين القرامطة والفاطميين

في كتابنا «في ربوع القرامطة» الذي سيطبع في دار دمشق، ذكرنا ما فيه الكفاية عن علاقة الفاطميين المغربيين بالقرامطة المشرقيين، وكانت تلك العلاقة قد تأثرت إلى حد كبير بما أقدم عليه القرامطة أثناء هجومهم على مدينــــة «سلمية»، وبخروجهم على المبدأ العام للفاطميين. ولا شك بأن تلك الأعمال العنيفة التي قام بها بعض المتطرفين منهم لم تكن لترضي جميع القرامطة، فقد ظلّت بينهم فئة واعية ملتزمة تدين بالولاء للفاطميين إن لم يكن علانية فبالسر. ومن هؤلاء قرامطة «البحرين»، وهناك أدلة تاريخية عديدة تشير إلى أن بعض زعماء القرامطة المعتدلين كانوا على اتصال بالفاطميين في المغرب يتلقون تعليماتهم وأوامرهم، ويبادلونهم في الوقت ذاته الطاعة، والإعلان عن رغبتهم بالانخراط في جيوشهم، ولكن المهدي كان متحفظاً، ويخشى من انقلابهم عليه. لهذا فقد وقف من رغبتهم تلك موقف المتريث. فالقرامطة حسب رأيه ما زالوا

غير مأمونين الجانب ؛ ولا بد من الحذر ، والتريث في كل ما يصدر عنهم .

ويذكر التاريخ : أن «عبيد الله المهدي »أغضبه قيام عصابات منهم بقطع طريق الحجّاج ، والاعتداء عليهم ، ثم عبثهم بالمسجد الحرام ، ونقلهم الحجر الأسود إلى « هجر » فكتب إليهم منذراً ، ومحذراً ، وطالباً الكف عن مثل هذه الأعمال الشائنة ، والتاريخ يذكر أنهم انصاعوا لأمره ، وأعادوا الحجر الأسود إلى مكانه ؛ كما كفوا عن الاعتداء على الحجاج . . . والحقيقة: فإن التاريخ وقف من هذا الحدث موقف الغموض فلم يعطِ أية تفسيرات لهذه الاتصالات الغريبة ، ولعلّ القرامطة بعد قيام الدولة الفاطمية في المغرب أدركوا فداحة أخطاءهم وجنايتهم الكبرى على الأسرة الفاطمية في «سلمية»،فأرادوا التقرب ، والتكفير عن الذنب ، وعرض عضلاتهم ، واستعدادهم للخضوع ، ولكن المهدي والقائم وقفا منهم موقف الحذر كما قلنا واضعين نصب أعينهما بأن أي تعاون معهم على أي صعيد من شأنــه أن يسيء إلى سمعة الدولة إسلامياً ، ويثير الأقاويل من جديد عنها .

وبرأي لو أن الفاطميين في المغرب ، تعاونوا مع القرامطة

في المشرق ، ونسقوا عملياتهم العسكرية ، ووحدة جيوشهم ... إذن لزالت الدولة العباسية من عالم الوجود وغيرها، ولتغيّر وجه التاريخ .

الغارات على الموانىء الرومية

ذكرنا في أكثر من مكان في هذه الموسوعة اهتمام الفاطميين بالسيادة على البحر الأبيض المتوسط ، وجعل هذا البحر مسرحاً لسفنهم ، ولأسطولهم الكبير ، وهذه الأحلام راودت أجفانهم منذ أن وطئت أقدامهم أرض أفريقيا الشمالية ؛ وفي الواقع فقد كانوا يقدرون أهمية البحر ، وفاعلية الأساطيل في صراعهم مع الروم ، ولهذا نراهم يسرعون إلى إقامة الموانىء البحرية المحصّنة ، ومراكز الانطلاق ، وقواعد المراقبة ؛ فحرصوا أشد الحرص على «صقلية» ، وبذلوا في سبيل الإبقاء عليها ضمن ممتلكاتهم الجهود الكبيرة ، ثم بنوا المهدية بعدها لتكون القاعدة الثانية .وبعد أن ورثوا أسطول «بني الأغلب» وجدوا أن هذا الأسطول لا يكفي لسد الحاجة المطلوبة ، فاستقدموا الخبراء من كل مكان ، واستكملوا المواد وزادوا

عدد قطع أسطولهم الذي بلغ في عهد القائم مائتي سفينة ، وقيل أكثر ، فكان أقوى أسطول عرفته دولة إسلامية في تلك الأيام، ويأتي بعده أسطول الدولة الأموية في الأندلس .

ومهما يكن من أمر ، فإنه رغم الحروب العنيفة ، والثورات الدامية ، التي كانت تندلع اثر بعضها البعض ، وخاصة في عهد«القائم بأمر الله» ، فإن هذا الخليفة لم يقف مكتوف الأيدي عن محاربة الروم.ففي سنة ٣٢٣ ﻫ أرسل حملة بحريةإلى «جنوا »فاستولت عليها ، ثم أغارت على«سردينيا »ودمرت أساطيل الروم الراسية فيها ، وكانت قد تحركت لمقاومة الغزو ، كما غنمت عدداً من السفن وضمتها إلى أسطولها ، ومن هناك توجهت إلى « قرسقة » فحاصرتها ثم دخلتها ، واستقرت فيها مدة ثم عادت .

ومن الجدير بالذكر أن « أمير البحر » كان لديه أمراً من «القائم بأمر الله» بأن لا يهادن،ولا يتوقف ، وأن يعتبر نفسه في حرب مستمرة مع الروم .

نظرة الى مصر

من الثابت أن الخليفة القائم بأمر الله لم يرسل جيوشاً إلى مصر لفتحها ولكن مرّ معنا أنه هيأ جيشاً وأرسله إلى «برقة» للتمركز فيها ، ثم استرجع هذا الجيش عندما تأزمت أحوال البلاد الداخلية ، ومن الثابت أيضاً أن حالة بلاده الاقتصادية وخلو خزائن الدولة من أموال إضافية ، مضافاً إلى ذلك أن الوضع العام الراهن لم يكن في حالة تسمح بإرسال جيوش إلى خارج حدود الدولة الفاطمية ، خاصة بعد اندلاع ثورات ابن العافية والزناتيين ، والخوارج ، تلك الثورات التي جعلت خزينة الدولة تنوء تحت عجز أو ما يشبه الإفلاس ولولا الأموال الطائلة التي كانت تتدفق على القائم بأمر الله من ديار المشرق ، لما استطاع الاستمرار أو الثبات أمام العواصف الهوجاء . على أن كل هذا لم يكن ليمنع القائم من اتباع سياسة جديدة نابعة من مبدأ اللين والمسالمة بالنسبة لمصر ، أو قل سياسة إيصال ما انقطع والاستمرار والحفاظ على الوضع الراهن . . . إلى حين ..

وهذا كله حلّ مكان الحرب والقتال الذي ربما جاء خطأ في بعض الحالات .

في ذلك العهد كان يحكم مصر « محمد بن الاخشيد » وكان مرتبطاً شكلياً بالدولة العباسية ، فكتب له القائم كتاباً أظهر فيه رغبته بالتقرب منه ، والتعاون معه ، فتريث الاخشيد بالرد عليه ، ولكن العباسيين علموا بما يخطط لهم الفاطميون ، وبما يدبرونه في الخفاء ، واعتقدوا بوجود علاقات واتصالات سريةبين«القائمبأمر الله» والاخشيد مما دفعهم إلى إرسال قائد هو « محمد بن رائق » وأناطوا به القضاء على كافة الحركات التي يثيرها الاخشيد ، وعندما وصل إلى الديار المصرية ثارت ثائرة الاخشيد ، وأعلن الثورة الشعبية على العباسيين ثم أمر بقطع الخطبة للعباسيين في المساجد ، والاستعاضة عنها بذكر اسم الخليفة الفاطمي «القائم بأمر الله»،ولكن كل هذا لم يستمر طويلاً ، لأن العباسيين اتبعوا سياسة اللين والمجاملة أيضاً ، فأغدقوا على الاخشيد الأموال والعطايا وما زالوا به حتّى أعاد كل شيء إلى عهده الأول .

وهنا لا بد لنا من إثبات الكتاب الذي أرسله القائم إلى الاخشيد ، وفيه تبرز سياسة اللين ، والمسالمة الجديدة التي

اتبعها بالنسبة لمصر ، واستعاض بها عن الحرب ، والعداء في تلك الفترة المصيرية من حياة دولته :

« قد خاطبتك في كتابي المشتمل على هذه الرقعة ، بما لم يجز لي في عقد الدين ، وما جرى به الرسم من أنصار يُستجلبون ، وضمنت رقعتي ما لم يطلع عليه أحد من كتّابي ، وذوي المكانة عندي ، وأرجو أن تردك صحة عزيمتك ، وحسن رأيك ، إلى ما أدعوك إليه ، فقد شهد الله على ميلي إليك ، وإيثاري لك ، ورغبتي في مشاطرتك ما حوته يميني ، واحتوى عليه ملكي ، وليس يتوجه لك العذر في التخلف عن إجابتي لأنك قد استغرقت مجهودك في مناصحة قوم لا يرون إحسانك ، ولا يشكرون إخلاصك ، يخلفون وعدك ، ويخفرون ذمتك ، لم يعتقد من أحد حسن المكافأة ، ولا جميل المجازاة ، وليس لك أن تعدل عن منهج نصحك ، وإيثار من آثرك إلى من يجهل موضعك ، ويضيع حسن سعيك . وأنا أعلم ان طول العادة في طاعتهم قد كره إليك العدول عنهم ، فإن لم تجد من نفسك معونة على اتباع الحق ، ولزوم الصدق ، فإنني أرضى منك بالمودة والأمر والطاعة حتى تقيمني مقام رئيس من أهلك تسكن إليه في أمرك ، وتعول عليه بمثل ذلك ، وإذا تدبرت هذا الأمر علمت أن الذي يحملني على التطأطيء لك ، وقبول

الميسور منك ، إنما هو الرغبة فيك ، وأنت حقيق بحسن مجازاتي على ما بذلته والله يريك حسن الاختيار في جميع أمرك ، وهو حسبنا ونعم الوكيل » .

الأدب في ظل
الدولة الفاطمية

عبيد الله المهدي ، ومن بعده القائم بأمر الله ، وقبلهما الآباء والأجداد الفاطميون الذين عاشوا في «سلمية - سورية». . . هؤلاء جميعهم ساروا في حياتهم على نهج علمي قويم يستند إلى مبادىء فكرية جديدة بالنسبة لعصرهم ، فقد استقرّ في أفكارهم ، واختمر في عقولهم ، بأن العلم وحده يبني الدول ، ويشيد دعائمها ، أما الجهل فعلى العكس فإنه يهدم الأركان ، ويزيل الآثار ، ويتلف الحرث والنسل ، فكل جماعة أو هيئة ، أو دولة لا تجعل العلم أساساً ، وركائز لها فلا يمكن لها أن تستقر ، أو تنهض ، أو تصل إلى الهدف المنشود ، أو يكتب لها النجاح في مضمار الحياة ، وعندما نقول ذلك نقرر بأن هؤلاء أنفسهم كانوا من هذا الرعيل يعيشون في ظل الأدب والعلم ، ويتفيأون كنف المعرفة ، ويعبون من معينها ، فالعلم

عندهم مادة أساسية يجب أن تساهم في غذاء الروح ، ولهذا فقد جعلوها قوتهم اليومي ، يأخذه الواحد منهم عن الآخر ، ثم يغرسه الدعاة بعقول الذين يبعثون بهم إلى الأقاليم لنشر أفكارهم وتعاليمهم .

والحقيقة ، فليس في الأمر غرابة ، ما دام التاريخ ذكر في صفحاته الكثير عن هذه المزايا والصفات ، فعبيد الله المهدي ، وبعده القائم قد عززا صرح العلم والمعرفة ، وأولياها كل ما تستحقه من اهتمام ، هذا بالإضافة إلى أنهما جعلاها في الدرجة الأولى، وعندما نعلم أن«القائم بأمر الله»في حملته الثانية التي قادها على مصر بعهد خلافة«عبيد الله المهدي»، وجه نداء إلى أهالي مصر اعتبره بعض النقاد قطعة أدبية رائعة ، وقد ضمنه قصيدة رقيقة من نظمه ، وفي ذلك الوقت كلّف بعض المصريين المناهضين للفاطميين الشاعر «الصولي» بالرد عليه . . . يقول القائم :

أيا أهل شرق الله زالت حاومكم
أم اختدعت من قلة الفهم والأدبْ
صلاتكم مع من ؟ وحجكم بمن ؟
وغزوكم فيمن أجيبوا بلا كذبْ ؟

صلاتكم والحج والغزو ويلكـــم
بشرّاب خمرٍ عـاكفين على الريب
ألم ترني بعت الرفـاهة بالسرى
وقمت بأمر الله حقـاً كما وجب
صبرت وفي الصبر النجاح وربما
تعجّل ذو رأيٍ فأخطا ولم يصب
إلى أن أراد الله اعزاز دينـــه
فقمت بـأمر اللهِ قومـة محتسب
وناديت أهل الغرب دعوة واثقٍ
برب كريم مـــن تولاه لم يخب
فجاءوا سراعـاً نحو أصيد ماجدٍ
يبادونـه بـالطوع من جملة العرب
وسرت بخيـل الله تلقاء أرضكم
وقد لاح وجه الموت من خلل الحجب
وأردفتها خيلاً عتـاقاً يقودهـا
رجال كأمثال الليوث لها جنب
شعـارهم جـدي ودعوتهم أبي
وقولهم قولي على النـأي والقرب

فكان بحمـــد الله مـــا قد عرفتم
وفزت بسهم الفلح والنصر والغلب
وذلك دأبي مـــــا بقيت ودأبكم
فـــدونكم حربـــاً تضرم كاللهب

وقد ذكر التاريخ ذلك بالتفصيل ، كما يجب أن لا يسهى عن بالنا الكتاب الذي أرسله من المهدية إلى محمد الاخشيد صاحب مصر (ذكرناه) ذلك الكتاب السري الذي كتبه بخط يده بمعزل عن مستشاريه وكتابه ، وكـــل هذا يظهر طول باعه في مجال الأدب واللغة والشعر والبيان ، ويدلل على مقدار ثقافته ، وأدبه ، وعلمه ، وامتلاكه البيان الجيد والألفاظ العربية الفصحى الرائعة .

ومهما يكن من أمر فليس هذا كله ما نريد أن نقوله في هذا الموضوع ... هناك الفكرة الأساسية التي كان يعتنقها الفاطميون ، والتي يدخل في نطاقها « الإصلاح » الشامل لكل مظاهر الحياة . فالمهدي والقائم ، ومن كان قبلهما وضعا خطة شاملة تهدف إلى القيام بحركة إصلاحية شاملة تنتشل المجتمع من الهوة السحيقة التي كان يقف على حافتها ، فحاولا بل وضعا منهاجاً لخطة متطورة حديثة انقلابية تهدم تدريجياً

العادات والأساليب السائدة الموروثة في المجتمع ، وهذا اعتبره بعض المحافظين كفراً وإلحاداً وخروجاً على الدين ، وكل هذا نضرب صفحاً عنه الآن ، لأن الوقت لم يحن بعد للكتابة عنه ، أو مناقشته ، مضافاً إلى ذلك أنه خارج عن موضوعنا .

من الثابت أن المهدي والقائم ، ومن جاء بعدهما كانوا يوجهون الدعاة إلى الأقاليم القريبة والبعيدة على السواء يحملونهم الأفكار ، والتعاليم ، والشعار الأول ، أو الهدف الأسمى ، وهو التأكيد بأنهم أبناء علي وفاطمة بنت الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) مما يجعل مكانتهم محاطة بهالة من التقديس والإجلال ، ومعنى هذا كله أنهم كانوا يعملون للمبدأ القائل « باستخدام الدين لمصلحة الدولة » بينما الدعاة المشرقيين الفاطميين ومنهم « القرامطة » كانوا يقولون ، ويدعون لاستخدام الدولة لإحياء الدين ونشره ، وتعميمه ، وهذه السياسة كما اعتقد كانت من أسباب النزاع المشهور بين الفاطميين والقرامطة .

في المشرق كانت خطة الأسرة الفاطمية ترمي إلى نشر قواعد مذهب فلسفي يقوم على تعاليم عميقة ، صعبة التفسير ، عسيرة الفهم ، قد لا يتسنى لأي كان استيعابها بسهولة ، وهذه القواعد

يدخل في نطاقها مزج الدين بالفلسفة ، وان هذه الأفكار لم يكن تعميمها وتدريسها ،والعمل بها بالأمر الهين في بلاد بدائية تعيش على الحياة القبيلية البعيدة عن كل أثر للتطور ، وللحضارة وقد أدرك ذلك الفاطميون منذ أن حطوا الرحال في أراضي شمالي أفريقيا ولهذا نراهم يعدلون خطتهم ، ويبشرون بأفكار ، وتعاليم جديدة معتدلة من صميم الإسلام ليس فيها ما يشغل الأفكار إلا نظرية تقديس الخلفاء الفاطميين على اعتبار أنهم ينحدرون من علي وفاطمة وكان أن اعتمدوا على إنشاء المدارس — مدارس التعليم للصغار وللكبار ، وسموها مدارس الدعوة وكانت كباقي المدارس الأخرى لا تتميز عنهم إلا بدرس إضافي كان يلقى على المستحقين بصوت خافت في بعض الأحيان — وهو تقديس الخلفاء ، وإننا نلاحظ بأن الخلفاء الفاطميين رغم وجود السلطة بأيديهم لم يستعملوا الشدة لفرض مبادئهم ، كما لم يستعملوا القوة لإرغام الناس على القبول بإمامتهم ، بل تركوا حرية الأديان قائمة في كل مكان ، ولم نسمع أو نقرأ في تاريخهم أنهم ميزوا بين أتباعهم ورعيتهم ، أو حالوا دون استخدامهم في وظائف الدولة بسبب عقيدتهم ، ولهذا فإن مبادئهم لم تنتشر في المغرب كما انتشرت في المشرق ، أو بلغة أصح لم تستقر في أفكار المغربيين كما استقرت بأفكار المشرقيين ،

ففي المغرب اقتصرت على الكتاميين ، ومن بعدهم على الصنهاجيين كما قلنا ، فالكتاميين كانوا أول محطة في المغرب حطّ الفاطميون الرحال عليها ، وأول أرض غرسوا فيها بذور أفكارهم في وقت لم يكن لديهم دولة ترغب ، أو جيش يرهب ، أو كيان سياسي له ما يعظمه في المجتمع .

ومهما يكن من أمر فلا بد من القول بأن الدولة الفاطمية في عهد المهدي والقائم أنجبت نخبة من العلماء والمفكرين سواء في المشرق أو المغرب ، وهؤلاء وصلوا إلى درجة عليا من الرقي العقلي ، وقد أثبتوا في كتبهم ومؤلفاتهم التي تركوها بأنهم جماعة مضطهدين متقشفين ، زاهدين ، عازفين عن كل مظاهر الدنيا . وبالرغم من كل هذا فإنهم تركوا أيضاً آثاراً غير واضحة لنزعاتهم السياسية حول حياتهم وتطلعاتهم وآمالهم ، ونرى من خلال تلك الكتب بعض ما عانوه من آلام ، وما قاموا به من كفاح . وما استهدفوا له من ظلم وإرهاب مضافاً إلى إظهارهم ما كان يختلج في نفوسهم ، وما تواصوا به من صبر ؛ واضعين شعار حياتهم ، أو قل صلاتهم الروحية التي كانوا يرددونها صباح مساء ، والتي لا يخرج مضمونها عن أن يكون الواحد منهم مخلصاً لأخيه حتى الموت .

ولا بد لنا في كتابنا هذا من تقديم لمحة خاطفة عن الفلاسفة، والأدباء ،والعلماء الذين عاصروا «عبيد الله المهدي والقائم»، وهكذا كل خليفة فاطمي في هذه الموسوعة ، وذلك للتدليل على أهمية البحث ، وإيفاءً لحق الموضوع علينا ، ولا بد من الإشارة أن بعض هؤلاء الأعلام أغفلهم التاريخ ، وطمس على آثارهم ، ومؤلفاتهم ، وهذا مما نأسف له أشد الأسف .

الادب الفاطمي في المشرق
أبو حاتم الرازي

أنجبت الدعوة الفاطمية في المشرق عدداً من العلماء ذوي الشأن والمكانة ، في عالم الأدب ، والفلسفة ، والتأليف ، فكان القلم واللسان هما السلاح الوحيد الذي شهروه للدفاع عن مبادئهم وفلسفتهم ، وأفكارهم ، وبواسطته جلبوا الكثير من الناس إلى صفوفهم ، وأثّروا في الحياة العقلية السائدة في مجتمعهم ، ويعتبر «أبو حاتم الرازي »من أبرزهم.

لعب هذا العالم الكبير دوراً بارزاً في المجال السياسي في «طبرستان» ؛ و «الديلم »وخاصة في «الري وأصبهان» ؛ وقد استجاب له كبار رجال الدولة أمثال : «أسفار بن شيرويه »و «مرداويج بن زيّار »وغيرهما ، وبعد هذا علينا أن لا نقلل من أهمية هذا الركن الكبير الذي اعتبر علماً من أعلام النهضة العلمية الإسلامية في فارس في ذلك العهد .

يعتبر كتاب «الزينة» من أهم مؤلفاته ، ويحتوي على ألف ومائتي صفحة ، وقد جعل إهداءه للخليفة الفاطمي القائم بأمر الله ، وفيه تناول القضايا الفقهية ، وفلسفة ما وراء الطبيعة ، وبعض المعلومات الجغرافية القيمة ، بالإضافة إلى فقه اللغة العربية ، واشتقاق الكلمات الفلسفيّة .

وله كتاب «أعلام النبوءة» وفيه يرد على «أبو بكر الرازي» ويناقش بعض آراءه في الفلسفة ، والغريب أنه يظهر عن نفسه ، ويزيح الستار عن كونه خبيراً في مجال الطب الروحاني ، والجسماني ، ومن الواضح أن العلماء المنصفين حكموا له على «أبي بكر» وقدموه عليه .

لأبي حاتم مؤلفات أخرى غير هذين بعضها نشر ، والبعض الآخر لا يزال مخطوطاً هذا غير الذي فقد في طيات الأزمنة ، وأن عدد مؤلفاته التي عرفت يربو عددها على الثلاثين .

ومهما يكن من أمر فإن الرازي كان من الأعلام الذين ساهموا في نشر الثقافة الإسلامية ، وعززوا القواعد الفلسفية العربية ، وآداب اللغة ، وإن الكتابة عنه لا تفي بها صفحات قليلة .

وأخيراً لا ندري فيما إذا كان «أبا حاتم الرازي» قد قام بزيارة القائم بأمر الله في المغرب ، فليس لدينا مصادر تاريخية تثبت أنه زار المغرب . ولكن هناك شبه إجماع بأن الرازي حينما فرغ من تأليف كتاب «الزينة» حمله وجاء به إلى المهدية وقدمه إلى الخليفة «القائم بأمر الله» إذ لا يعقل أن يكتب مؤلف أي مؤلف كتاب إهداء لشخص لا يعرفه ولم يسبق له أن اتصل به .

أبو عبدالله النسفي

يعتبر العلاّمة «النسفي» من أكابر العلماء الذين خدموا الفاطميين في عهودهم المبكرة . عرف بتأثيره على « نصر بن أحمد الساماني » أمير خراسان واليه يعود الفضل بإدخاله في دعوة الفاطميين ، ويذكر التاريخ أنه أجبره على تأدية دية أحد العلماء الفاطميين الذين قتلهم قبل أن يتصل بالنسفي أو يعرفه ، وهذه الدية قدرت بمائة وعشرين ألف دينار أرسلت إلى الخليفة الفاطمي «القائم بأمر الله» في المغرب .

فاق النسفي العديد من علماء عصره ، وذاعت شهرته في عالم الأدب والفلسفة ومن أشهر مؤلفاته كتاب « المحصول » الذي اعتبر أساساً لكل ما جاء بعده من كتب الفلسفة ويظهر أن هذا الكتاب القيّم قد فقد، وللدلالة على أهميته المحاولات التي بذلت من قبل المستشرقين والعلماء للحصول على نسخة منه ، وكلها باءت بالفشل .

أبو يعقوب السجستاني

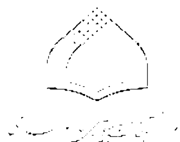
من أشهر الفلاسفة المشرقيين ، كان اليد اليمنى « للنسفي » ، وعليه تتلمذ . له مؤلفات عديدة كان لها تأثير في مجرى النهضة الإسلامية الفكرية وأشهرها :

« إثبات النبوءات ، والينابيع ، والموازين ».

إن هؤلاء الفلاسفة الثلاثة الذين ذكرنا لمحة عن نشاطهم الفكري ، في عهد المهدي والقائم بأمر الله . كان لا بد من التطرق لذكرهم لأنهم يدخلون في نطاق البحث ، فضلاً عن أنهم استطاعوا أن يرفعوا منارة العلم عالياً في المشرق ، وأن يجذبوا الكثيرين إلى صفوفهم .

ومهما يكن من أمر فإن في تاريخ حياتهم إشارات واضحة إلى أنهم ساهموا في النهضة الإسلامية الفكرية في ذلك العصر ، ولم يكونوا منكمشين كغيرهم من علماء الفرق الأخرى ،

أو في عزلة عن تطور الحياة الثقافية الإسلامية التي كانت محيطة بهم ، هذا ويبدو أن المدارس الفكرية التي أسسها عبيد الله المهدي والقائم وأسلافهما كان لها أكبر الأثر في تغذية هؤلاء ودمجهم في حياة الثقافة والعلم والمعرفة .



الأدب الفاطمي في المغرب

النعمان بن حيون

وكما في المشرق ، هكذا في المغرب ، فإن الفاطميين أكثروا من فتح المدارس ، وتعميم الثقافة ، ودعوة الناس إلى التزود منها . ولكن هذه المدارس في المغرب لم تنتج مثلما أنتجته ديار المشرق ، أما الأسباب فقد ذكرناها . ويعتبر «النعمان بن حيُّون» أبرز المتخرجين منها :

دخل في خدمة« عبيد الله المهدي »سنة٣١٣هـ وكان مالكي المذهب ، ثم خدم«القائم بأمر الله»،و«المنصور»،و«المعز لدين الله . في أول أمره عين «قيماً» على مكتبة القصر بالإضافة إلى مهمة جمع . وحفظ الكتب . وفيما بعد ولي القضاء في طرابلس ، وذلك في عهد القائم بأمر الله . وبعهد المنصور نقل إلى «المنصورية» عاصمة الخلافة الفاطمية الجديدة ، وفي

عهد «المعز لدين الله» رحل إلى القاهرة حيث عهد إليه بوظيفة « قاضي القضاة » .

كان فقيهاً ، ومشرعاً ، وشاعراً ، اشتهر بخصب قريحته ، وغزارة مادته ، وله أكثر من ستين كتاباً أشهرها كتاب « دعائم الإسلام » وهو يمثل الفقه الفاطمي المستمد من فقه جعفر الصادق ، ويقع في مجلدين ، وله كتاب « المجالس والمسايرات » في أدب التاريخ ، وهو خير ما كتب عن حياة الفاطميين في المغرب ، فقد تناول فيه حياة الخلفاء الأربعة المهدي ، والقائم ، والمنصور ، والمعز ، ومن هذا الكتاب استطعنا أن نقف على الكثير من حياة الخلفاء المذكورين الخاصة في قصورهم ، وفي أوقات فراغهم ، كما أنه أمدنا بوثائق تاريخية ذات قيمة عن نظام الحكم لدى الفاطميين ، والنصائح التي كانوا يسدونها للولاة وللحكام ، والقضاة ، وفي الكتاب بعض الإشارات عن اعتماد الفاطميين على قبيلة « كتامة » وتولية رجالاتها المناصب المهمة في الدولة ، وفي الكتاب المذكور تظهر علاقة «المعز لدين الله» بالأمويين في الأندلس قبل قدومه إلى مصر ، وفيه أيضاً شرح أسباب العداء بينهم مع الموازنة بين قوة كل من الفريقين ، كما كشف عن مخاوف

الناصر من أسطول الفاطميين ، وخوفه على عرشه من الوقوع بأيديهم .

من جهة ثانية أفرد عدداً من الصفحات للحديث عن الحملات البحرية التي شنها الفاطميون على «الناصر» وحلفائه (وهذه لم نقرأها في كتب تاريخية أخرى) ويذكر : أنه ولأول مرة اتصل الناصر الأموي بالإمام المعز وكان يتزلف إليه تارة ، ويهدده أخرى . وتعتبر الرسائل المذكورة من أحسن ما كتب في البلاغة ، والأدب ، والمنطق لما اشتملت عليه من الحجج ، والبراهين في النفي والإثبات وما إلى ذلك ،وعرض «النعمان» غير مرة بأن«الناصر» كان يخالف الروم سراً ضد الفاطميين ، كما صوّر ما حلّ بالروم أمام هجمات الأسطول الفاطمي .

ومهما يكن من أمر فكتاب «المجالس والمسايرات» يعتبر قطعة أدبية رائعة . ويمتاز بأسلوب رقيق . وفيه الانسجام في الألفاظ والمعاني . وهو على العموم مرآة صادقة للأدب في ذلك العصر .

إذن بعد هذا نستطيع أن نقول : بأن«النعمان» كان علماً من أعلام الأدب في المغرب . وكان له أبرز الأثر في النهضة الثقافية وخاصة في الديار المصرية .

مات في مصر . ودفن فيها .

جعفر بن منصور اليمن

جاء إلى المغرب من اليمن سنة ٣٢٢هـ ،فوضع نفسه في خدمة الدولة الفاطمية ، وكان موضع تقدير القائم والمنصور وهكذا في عهد«المعز لدين الله»،وقد عرف أنه انتقل من المغرب إلى مصر ، عندما نقل الفاطميون عاصمة ملكهم إلى الديار المصرية .

لجعفر عدداً من الكتب في موضوع الفلسفة ، وأهمها «أسرار النطقاء ، وسرائر النطقاء» وله كتاب «الفرائض وحدود الدين» . لم يطبع من كتبه إلاّ القليل .

في القاهرة عين «داعي دعاة» ومعنى ذلك أنه أنيط به أكبر وظيفة دينية في الدولة الفاطمية .

ومهما يكن من أمر فإن جعفر يعتبر أحد اثنين يعدان من أشهر العلماء الذين أنجبتهم الدولة الفاطمية في المغرب . مات ودفن في مصر سنة ٣٦٣هـ .

أحمد بن محمد بن هارون
البغدادي

عاش في الأندلس ، ونعم بخيراتها ، وحاز على تقدير أهلها ، وإليه يعزى نشر مؤلفات «الجاحظ وابن بيهم» .

دخل في خدمة «عبيد الله المهدي» ، فعينه كاتم أسراره . وظلّ قائماً بهذه المهمة في عهد «القائم بأمر الله» و«المنصور».

كان على جانب كبير من العلم والفضل والمعرفة بكافة العلوم السائدة في عصره .

مسلمة المجريطي

سمي أمير الحسّابين الأندلسيين ، وهو الذي نقل المراصد الفلكية من بغداد إلى الأندلس ، حتى أصبح توقيت « طليطلة » في عهده هو التوقيت للعالم المتمدن في تلك العصور البعيدة ، وقد أخذ عنه علماء الفلك الكثير من المسائل الحسابية والهندسية فضلاً عن علوم الفلك والطب والكيمياء .

عرف عنه أنه تأثر كثيراً بالفاطميين ، وذكر أنه كان على اتصال سري بخلفائهم في المغرب يدلنا على ذلك إقدامه على نشر كتاب « رسائل إخوان الصفاء وخلاّن الوفاء » في بلاد الأندلس .

أما بالنسبة للشعراء الذين عاشوا في المغرب في ظل الدولة الفاطمية ، فقد جاء التاريخ مقفلاً ، وخالياً من أسمائهم إلاّ من « ابن هانيء الأندلسي » شاعر المعز لدين الله ، « وأحمد المروزي » نجل القاضي المروزي الذي تولّى القضاء بعهد

الخليفة الفاطمي « عبيد الله المهدي » وهناك شاعر ثالث عاصر الخليفة القائم بأمر الله ثم المنصور في ديار المغرب وهو : « علي ابن محمد الأيادي » وكما هو الحال فإن الأيام لم تبقِ لنا من إنتاجهما سوى مقاطع ذكرها «النعمان بن حيّون» في كتابه «افتتاح الدعوة» . وهي على قلتها لا تعطي أية فكرة أو تقود إلى معرفة لحياة الشاعر .

هذه لمحة وجيزة كان لا بد من إيرادها إذ فيها وصف جانب من الحياة الفكرية والأدبية التي كانت سائدة في تلك الفترة من الزمن .

والحقيقة : فإن الحياة الأدبية بالرغم من العواصف السياسية الهوجاء كانت مزدهرة يانعة تسير في طريق التطور والنهوض ، فهذه الدولة الفتية بالرغم مما كانت تعانيه في المغرب من الثورات ، والانتفاضات . فإنها في مستهل عهدها وفرت الأسباب لتشجيع كل ما يمت إلى الأدب والفكر بصلة ، ولتقريب الذخيرة الثمينة من قرائح الأدباء والشعراء إلى الأذهان . مما يعطينا الدليل بأن صرح الأدب الباذخ ما كان يوماً من الأيام إلا رائداً لهؤلاء الخلفاء .

هذا ومن المفيد أن نذكر : بأن الأمانة التاريخية ، وهي بعنقنا تلزمنا بقول الحقائق . والابتعاد عن السفاسف .

واجتياز العقبات ، والاعتبارات الأخرى ، وخاصة التعصب الديني الذميم الذي هو أشرس عدو للإنسانية منذ أن وجد الإنسان على هذا الكوكب .

فعندما يصفو الذهن ، ويتحرر الإنسان من القيود ، ويقف أمام المسؤوليات الإنسانية الجسام وجهاً إلى وجه فينبغي عليه أن يفيء إلى ظلال الحقيقة ، وأن يستظلّ بظلال الواقع ، فيعمد إلى محاربة الأفكار البغيضة ، وتيارات الجهل والغباء ، والنظر القصير الموروث .

خاتمة المطاف

نتوقف الآن عند هذا الحد من التحدث عن الخليفة الفاطمي الثاني « القائم بأمر الله » وفي أعماقنا شعور غريب بأن ما ذكرناه عنه هو قليل جداً ، فتاريخ القائم سلسلة متواصلة من الجهاد والنضال ، وحياته فيها كل العجائب والغرائب ، وأنه لمما يحز في النفس أنه عاش خمسة وخمسون عاماً طافحة بالنضال والكد والتعب ، فلم يعرف الراحة في حياته سواء في المشرق أو في المغرب ، فالسنين التي قضاها في المغرب وهو ولي للعهد تعتبر من أصعب السنين بالنسبة إليه سيما وقد أنيطت به قيادة الجيوش في مرحلة تأسيس الدولة ، أما بعد استلامه الخلافة فكانت حياته قلقة وتعبة ، فدولته معرضة للانهيار في كل لحظة بسبب الثورات التي اندلعت عنيفة جارفة في كل مكان وجاءت في نهاية المطاف ثورة الخوارج لتدك أو لتقرع أبواب

عاصمة دولته المهدية ، ومن المؤلم أنه مات وجيوش الخارجي «ابن كيداد» على مقربة من عاصمة بلاده، وأنه ترك كل شيء لابنه «المنصور» الشاب المتحمس الذي كان في سن العشرين ، ولا بد من القول أن ثورة «ابن كيداد» ظلّت ثلاثة عشر عاماً تهدد ملكه .



فهرسة الموضوعات

١ – عودة إلى الكتاب الأول من الموسوعة	٥
٢ – المزيد من أخبار عبيد الله المهدي	١٢
٣ – الفتح العربي لشمالي أفريقيا	١٨
٤ – قبائل شمالي أفريقيا	٢٤
٥ – دول شمالي أفريقيا	٢٧
٦ – بين الفاطميين والأمويين أو بين المهديّة وقرطبة	٣٣
٧ – هواجس قرطبة	٣٦
٨ – وفاة الخليفة الفاطمي الأول – المهدي –	٤١
٩ – الخليفة الثاني القائم بأمر الله	٤٨
١٠ – العودة إلى الأحلام الفاطمية	٥٤
١١ – طلائع الثورات – أول الغيث	٥٩
١٢ – ثورات الخوارج أبو يزيد مخلّد بن كيداد	٦٩
١٣ – علاقة الأمويين بالثورات المغربية	٧٦
١٤ – علاقة القائم بأمر الله بالمشرق	٨٠

١٥ ـ بين القرامطة والفاطميين	٨٢
١٦ ـ الغارات على الموانىء الرومية	٨٥
١٧ ـ نظرة إلى مصر	٨٧
١٨ ـ الأدب في ظل الدولة الفاطمية	٩١
١٩ ـ الأدب الفاطمي في المشرق ـ أبو حاتم الرازي	٩٩
٢٠ ـ أبو عبد الله النسفي	١٠٢
٢١ ـ أبو يعقوب السجستاني	١٠٣
٢٢ ـ الأدب الفاطمي في المغرب ـ النعمان بن حيّون	١٠٥
٢٣ ـ جعفر بن منصور اليمن	١٠٨
٢٤ ـ أحمد بن محمد بن هارون البغدادي	١٠٩
٢٥ ـ مسلمة المجريطي	١١٠
٢٦ ـ خاتمة المطاف	١١٣

مصادر البحث التاريخية

تاريخ الدولة الفاطمية – حسن إبراهيم حسن ١٩٥٨
الفاطميون في مصر وأعمالهم السياسية والدينية . حسن إبراهيم حسن ١٩٣٢
تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ، حسن إبراهيم حسن ١٩٤٦ .
النظم السياسية بالاشتراك مع علي إبراهيم حسن ، حسن إبراهيم حسن ١٩٣٩ .
عبيد الله المهدي بالاشتراك مع طه أحمد شرف ١٩٤٥ .
المعز لدين الله بالاشتراك مع طه أحمد شرف ١٩٤٧ .
كنوز الفاطميين ، زكي محمد ١٩٣٧ .
تاريخ جوهر الصقلي ، علي إبراهيم حسن ١٩٣٣ .
في أدب مصر الفاطمية ، محمد كامل حسين ١٩٥٠
الصليحيون ، حسين همذاني –

النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق ، محمد جمال سرور ، ١٩٥٧ .
مصر في عهد الدولة الفاطمية ، محمد جمال سرور ١٩٥٧ .
افتتاح الدعوة ، النعمان بن حيّون —
المجالس والمسايرات ، النعمان بن حيون —
الهمة في آداب أتباع الأئمة ، محمد كامل حسن ١٩٥٠ .
عيون الأخبار ، إدريس عماد الدين —
مجموعة الوثائق الفاطمية ، جمال الدين الشيّال ١٩٥٨ .
الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية ، محمد عبد الله عنان ١٩٣٧ .
نظم الفاطميين ورسولهم في مصر ، عبد المنعم ماجد ١٩٣٧ .
السجلات المستنصرية ، عبد المنعم ماجد ١٩٥٤ .
الإمام المستنصر بالله الفاطمي ، عبد المنعم ماجد ١٩٦١ .
الحاكم بأمر الله المفترى عليه ، عبد المنعم ماجد ١٩٥٩ .
نظم الحكم في مصر الفاطميين ، مصطفى عطيه مشرفه ١٩٤٨ .
سيرة جعفر الحاجب ، و . إيفانوف ١٩٣٠ .
صلة تاريخ الطبري ، غريب بن سعد —
كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة ، الباقلاني ١٩٣٩ .
رسائل الحاكم بأمر الله كتب سنة ٤٠٨ ، مخطوطة .

عبقرية الفاطميين ، محمد حسن الأعظمي ١٩٦٠ .
الناصر لدين الله ، سيمون حايك ١٩٦٢ .
اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ، المقريزي .
نظام الوزارة في العصر الفاطمي – مقالة في مجلة الثقافة ، جمال الدين الشيّال ١٩٥١ .
أصل الذمة في العصر الفاطمي ، مقالة في مجلة المقتطف ، جمال الدين الشيّال ١٩٥٤ .
البيان المغرب في أخبار المغرب ، ابن عذارى .
سيرة الأستاذ جوذر الكاتب ، محمد كامل حسين ومحمد عبد الهادي شعيرة .
أخبار ملوك بنو عبيد وسيرتهم ، فوندر ، ليدن ١٩٢٧ .

معجم البلدان — ياقوت الحموي
تاريخ الرسل والملوك — الطبري
تقويم البلدان — أبو الفداء
كتاب البلدان — اليعقوبي

المصادر الأجنبية

The Alleged - Founder of Ismaïlism - Bombay - W Ivanow - 1946.

The Origins of Ismaïlism : B. Lewis.

The Quaddahid Legend : Abbas Hamdani.

Mémoires sur les Quarmates de Bahrein et les Fatimits - Leyden - 1886 - De Goeje -

Polemics on the origin of the Fatimis - Caliphs - Prince - Mamour - London 1934.

Fatimid - Decrees - Stern - S.M. London.

Quelques Chroniques Anciennes aux derniers Fatimides 1937.

L'impérialisme des Fatimides et leur propagande 1942 -1947.

Essaie sur l'histoire des Ismailiens de la Perse : Defremery, M.C.

Fragments relatif à la Doctrine des Ismailis - Hamdani, Paris, 1874.

Studies in The Early Persian Ismaïlism - Leiden - 1948.

The rise of the Fatimids - Calcuta, 1942.

A Guide to Ismaïli Literature : London, 1933.

A short history of the Fatimid Khalifate - London (1923).

Description du Maghreb — Leiden 1860.

The letters of Al Mustansir — School of oriental of London 1934.

En Quête aux pays du Levant — « M. Barrès ».